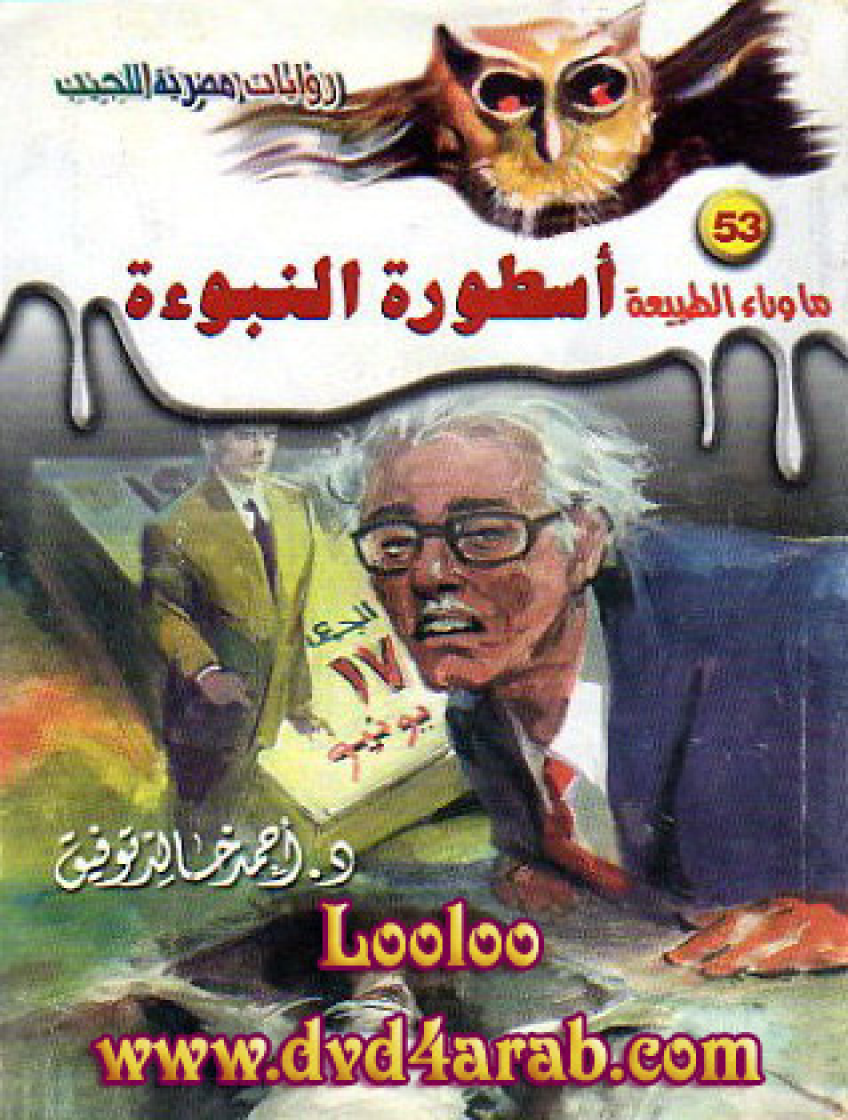

روايات مصرية للجيب
53
ما وراء الطبيعة
أسطورة النبوءة
د. أحمد خالد توفيق
Looloo
www.dvd4arab.com

مقدمة

ولكن لماذا لا أحكى قصة أخرى ؟

لماذا يفترض البعض أن علىّ أن أصمت وأستمع ؟ لقد قضيت حياتى كلها أصمت وأستمع ، والآن يبدو أن الوقت قد حان كى أتكلم فلا أفعل إلا الكلام .. إذا لم يتكلم المرء وقد دنا من القبر ، فمتى يتكلم إذن ؟

أحيانًا أشعر بالخوف من الليل .. أحيانًا أشعر بالوحدة .. فأعود مجرد طفل واهن يرتجف من الظلام ويتمنى لو أضاء أحد أبويه ضوء غرفة النوم .. لكن ليس من حق من كان فى عمرى أن يفكر فى أبوين .. هذا ترف بيولوجى ليس متاحًا لى .. إذن لماذا لا أضىء النور بنفسى؟ لأننى لا أريد أن أترك الفراش الدافئ ، وأن تطأ قدماى الأرض الباردة ، وهناك بينى وبين المفتاح ألف خطر وألف كيان يمكن أن تجعل رحلتى إلى القبر أسرع ..

لهـذا سأظل فى الفراش كما أنا ، ولسوف أحكى لكم بصوت لاهث مرتجف قصة جديدة .. مرعبة ؟

لا .. ليس الليلة .. هذه آخر ليلة أشتهى أن أحكى فيها قصة مرعبة ..

لا أنكر أن ذلك الرعب من المجهول يتسرب إلى سطور قصة الليلة .. عدم الفهم .. الغموض .. لكن هذا يختلف ولاشك عن المسوخ التى تقطر الدماء من أنيابها ..

إذن سأحكى لكم الآن .. و ...

من أضاء الغرفة ؟

أنا أعرف أنه ليس أنا .. وأعرف أننى وحيد فى المنزل .. وأعرف ....

لاشك أن هناك عيبًا ما فى المفتاح الكهربى .. عيبًا كريهًا لابد من أن أعنى به غدًا .. خشب الأرضية كذلك من نوع غير جيد .. تصوروا ، إنه يصدر صريرًا كأن هناك من يمشى فوقه .. هذه البطانية ليست سميكة بما يكفى لأن تيارًا يتسرب إلى جسدى الذى كان دافئًا ..

دعونا إذن من هذا الهراء .. لن أزيح الغطاء عن أذنى لأرى ما هناك .. أعطال الكهرباء وعيوب خشب الأرضية والأغطية المغشوشة لا تستأهل أن أفسد رقدتى المريحة كى .....

* * *

١ ـ محمود زاهر ..

بارد متوحد صموت مظلم ..

كما فى الكوابيس ..

* * *

وداعًا أيها الغريب ..

كانت إقامتك قصيرة ، لكنها كانت رائعة ..

عسى أن تجد جنتك التى فتشت عنها كثيرًا ..

وداعًا أيها الغريب ..

كانت زيارتك رقصة من رقصات الظل ..

قطرة من قطرات الندى قبل شروق الشمس ..

لحنًا سمعناه لثوان هنالك من الدغل ..

ثم هززنا الرءوس ، وقلنا إننا توهمناه ..

وداعًا أيها الغريب ..

لكن كل شىء ينتهى ..

* * *

لا حديث للكلية إلا عن (محمود زاهر) ..

هناك نوابغ ونوابغ .. إنك تقابلهم فى كل مكان هذه الأيام .. لربما وجدت بعضهم فى غرفتك ، ولربما وجدت أحدهم فى فرن الموقد .. ولربما قابلت أحدهم فى المجرور المفتوح فى شارعكم ، لكن دعنى أؤكد لك أن (محمود زاهر) كان نابغة من طراز غير مسبوق ..

البداية كانت امتحانات آخر العلم ، وهى امتحانات عسيرة بالتأكيد ، لكن ـ الأسوأ ـ أن أستاذ المادة من الطراز الذى يرى أن الطالب الجيد لم يخلق بعد ، وإذا وجد فلابد أن يسحق .. أسئلة عسيرة حتى إننى احتجت إلى مراجعة بعض كتبى كى أجد إجاباتها .. وتساءلت فى حيرة : ما هى فرصة الطالب العادى فى امتحان كهذا ؟ طبعًا لم أبح بخواطرى هذه ـ فهذا ليس من حقى ـ وآثرت الصمت ..

طبعًا كانت هناك الكثير من الإغماءات الأنثوية ، وفقد بعض الطلبة أعصابهم فى اللجان ، أما العقلاء منهم فانتظروا حتى انتصف الوقت وغادروا اللجان ، وهم يرسمون

على وجوههم تعبيرًا من طراز (ليكن .. لم يعد هذا مهما) أو (خليها تخرب) .. دعك من الفتاة التى وقفت تصرخ بالصوت الحيانى وتلطم الخدين ، توطئة لأن تدخل فى نوبة تشنج هستيرى ارتعت لها فرائص المراقبين ..

جو لزج وتعاسة عامة تتخلل مسام جلدك ، وأنسجة قميصك ، بل وروحك ذاتها .. كيف تواجه العالم بروح مبللة بالعرق ؟ لا أدرى ..

وفى أثناء تصحيح الأوراق كانت النتيجة متوقعة ..

لقد انتهى عصر المعجزات ، ولم يعد الامتحان الصعب يعنى شيئًا إلا إجابات عجيبة ، أو لا إجابات على الإطلاق ..

كانت كراسات الإجابة كلها تبعث على الضحك أو البكاء لا أدرى بالضبط ..

هناك من كتب أى كلام من أى نوع ، وهناك من رسم وجوه فتيات وزهورًا ، وهناك من ترك الورقة بيضاء كعقل طفل رضيع ..

لا توجد استثناءات ..

لكن - فى العاشرة مساء وقعت عيناى على تلك الورقة ..

فى البدء لم أصدق عينىّ .. رمشت بهما عدة مرات كى أتأكد من أننى لا أهذى ..

لكن النتيجة واحدة دائمًا ..

هذه أروع إجابة امتحان رأتها عيناى فى حياتى ..

* * *

بخط نضيد أنيق صغير .. الصفحات كلها مسودة .. تم استعمال لون أسود للعناوين الفرعية مع الأزرق الذى تمت به الإجابة .. كلا .. لا يمكن اعتبار هذه علامة .. ولماذا يضع علامة ؟

إن هذه إجابات لم أر أروع ولا أدق منها ، ولو أن (ويليام أوسلر) نفسه جاء ليؤدى الامتحان لما استطاع أن يفعل ما هو أفضل ..

ولكى يثير الفتى ـ أو الفتاة ـ غيظى كانت هناك أرقام فى نهاية الفقرات ، والأرقام تشير إلى المراجع التى استقى منها معلوماته .. إن فكرة ورقة إجابة ذات مراجع غريبة ، لكنها بين يدى الآن ولا شك فى هذا ..

رحت أفتش عن خطأ ما .. عن سهو .. عن زلة تدل على أن من كتب هذا كائن بشرى ، لكن لا .. لم أجد ..

الحقيقة هى أننى أمسك بورقة إجابة تخص أحد النوابغ .. وهم يمثلون طائفة بشرية ليس لها عنوان أو محل إقامة ثابت ، لكنك تعرفهم على الفور حين تقابلهم ..

ولم أجد مناصًا من أن أمنحه الدرجة الكاملة ..

كانت هذه ظاهرة ، وقد اتجهت فى اليوم التالى إلى غرفة الأستاذ وفتحت حقيبتى ولوحت فى وجهه بالورقة .. بعبارة أخرى دسستها تحت أنفه وصحت :

ـ « ما رأيك فى هذه ؟ »

كان يلوك بقايا شىء ما من الأشياء التى تلاك ، فازدردها وجرع جرعة من كوب الشاى ، وراح يتأمل الورقة :

ـ « لا بأس .. لا بأس على الإطلاق .. »

قلت فى عصبية :

ـ « لابأس ؟ هذا الفتى ـ أو الفتاة ـ ليس طبيعيًا .. إنه ظاهرة .. »

فى برود قال وهو يعيد إلى الورقة :

ـ « ليس لهذا الحد .. لاتنس مايقوله الأستاذ لتلميذه : سبع هى درجة جيدة .. ثمان معناها أنك ممتاز .. تسع معناها أنك تعرف ما أعرف .. لكن عشر درجات معناها أنك علمتنى شيئًا جديدًا .. ولاتنس أن المفترض أن يجيب الطالب الامتحان .. هذه هى القاعدة وما يحدث استثناء .. لا أحد ينال جائزة نوبل لأنه يغسل يديه قبل الأكل ، لأنه من المفترض أن يغسل الناس أيديهم قبل الأكل .. »

ـ « ليس إذا ما غسلوا أيديهم بالكلور .. لاتنكر أن التميز موجود .. وهذا الطالب متميز .. »

ـ « ربما كان الآخرون مجموعة من الحمير لا أكثر .. »

لم أجد ما أقول ، فغادرت المكتب وأنا أفكر فى أننى سأعرف هذا الطالب فيما بعد .. سأفهم لماذا هو عبقرى إلى هذا الحد المريب ..

لا أدرى لماذا أشعر بالمهانة كلما قابلت عبقريًا .. كأننى تلقيت صفعة على قفاى .. هذا بشر مثلى ومثلك وبرغم هذا .. برغم هذا .. لا أعرف من أين يأتى هؤلاء ..

* * *

كانت هذه من الفترات الهادئة فى حياتى .. ومعنى هذا أن مصيبة ستحدث قريبًا جدًا .. لقد اعتدت على أن يعقب الهدوء صخب .. وكنت أرتجف قلقًا وذعرًا .. ترى ما (شكل الأشياء القادمة) مع الاعتذار لعنوان

ذلك الفيلم الأمريكى الشهير ؟ هل المشكلة القادمة مرعبة أم هى ـ فقط ـ غريبة محيرة ؟

وفى هذه الفترة بالذات بدأت الامتحانات الشفهية ، وكانت هذه المرة الأولى التى ألقى فيها (محمود زاهر) وجها لوجه ..

كنا فى هذه الفترة ، نضع أمامنا ورقة امتحان الطالب التحريرية لنقارن إجاباته المكتوبة بكلامه .. لقد أعاد الكونترول لصق البطاقة التى تحمل اسم الطالب ورقم جلوسه على أوراقه ، وبالتالى صار كائنًا بشريًا من لحم ودم .. له اسم وصورة وعنوان ..

كانت ورقة إجابته من نصيبى ، وسرنى هذا كثيرًا .. الحقيقة أن أصابعى راحت ترتجف مع خلل فى ضربات قلبى هو ما يدل على الحماسة بالنسبة لى .. سأرى هذا العبقرى ! سأعرف كيف يتكلم ويفكر ..

كان الاسم هو (محمود أحمد زاهر) .. وقد وضعت الورقة جانبًا فى مكان متميز ، ورحت أصغى بنصف ذهن إلى إجابات رفاقه المعهودة الكئيبة ..

ـ « ما أسباب فقر الدم قليل الصبغة ؟ »

فينظر الفتى للسقف وهو يحرك ساقه فى عصبية ثم :

ـ « طاخ .. طيخ .. بوم .. طاخ .. أوع .. طاخ .. ومن الأسباب الأخرى أن .. بوم .. طاخ »

ـ « كفى .. كفى .. قل لى الصورة السريرية لسرطان الدم الحاد »

ـ « طاخ .. طيخ .. بوم .. طاخ .. أوع .. ويمكن أيضًا أن نرى .. طاخ .. أوع .. هاع ! »

ـ « كفى .. كفى ! »

هكذا تمضى الدقائق حتى يأتى دور (محمود زاهر) ..

كان نحيلاً إلى حد لايصدق .. طبعًا .. لا أسمح لأى عبقرى كان أن يكون بدينًا باستثناء (صلاح جاهين) .. كان يرتدى ثيابًا عادية تمامًا .. وكانت عيناه أليفتين وديعتين لا تحملان ذلك الوهج الخاص بالعباقرة .. باختصار كان مخيبًا للأمل ..

ـ « إجاباتك رائعة يا (محمود) .. »

فهز رأسه فى حركة متواضعة على شىء من البلاهة ..

ـ « من أين جئت بهذه الإجابات النموذجية ؟ »

من جديد هز رأسه فى تواضع وقال :

ـ « من هنا .. وهناك »

وهى إجابة غبية لاتوحى بأىّ ذكاء .. لكن لابأس .. العباقرة الحقيقيون لايعطون انطباعًا بأى شىء غير عادى ، وهم دائمًا عاطلون من (الكاريزما) .. يقال إن الشاعر العبقرى (بيرم التونسى) كان يجلس فى المقهى فلا يتكلم إلا عن الطعام وأصنافه ..

وبدأت أسأله (الفتى لابيرم طبعًا) ..

هنا بدأت أشعر بخيبة أملى تتزايد .. تتفاقم .. تزدهر ..

ـ « طاخ .. طيخ .. بوم .. طاخ .. أوع .. ويمكن أيضًا أن نرى .. طاخ .. أوع .. هاع ! »

هذه إجابات غبية عادية لايميزها شىء .. ربما هى الأسوأ بين إجابات رفاقه ..



هذا الفتى لا يملك أى تفوق خاص .. إنه واحد آخر من القطيع ..
فكيف كتب ورقة الإجابة العجيبة هذه ؟!..

فى النهاية ضم ياقة قميصه إلى أعلى صدره ، وقال فى تملق :

ـ « عسى أن أكون قد أحسنت .. »

ـ « ممتاز .. »

قلتها وأنا أتميز غيظًا ..

هذا الفتى لا يملك أى تفوق خاص .. إنه واحد آخر من القطيع .. فكيف كتب ورقة الإجابة العجيبة هذه ؟ هذا لغز لابد من أن أعرف سره .. ثمة تفسير واحد ..

فى الواقع ثمة أكثر من تفسير ..

* * *

وداعًا أيها الغريب ..

كانت إقامتك قصيرة ، لكنها كانت رائعة ..

عسى أن تجد جنتك التى فتشت عنها كثيرًا ..

* * *

٢ ـ عادل توفيق ..

ـ « لا بأس .. هذا هو رهاب الامتحان الشفهى »

كان قائل هذا هو زميلى د. (رأفت) .. ظننت هذا واضحًا .. إذ من مثله يتكلم بهذه النبرة الشاردة قليلاً ..

وأردف وهو يجمع أوراقه ليرحل :

ـ « إن العقل البشرى أداة غريبة .. إنه يظل يعمل منذ تولد حتى يوجه إليك أول سؤال فى لجنة الامتحان الشفهى .. عندها يصاب بالتوقف .. »

أعرف هذا .. أقسم بالله إننى أعرف هذا .. لو كان يعتقد أنه أكثر منى فهما للضعف البشرى وحدود الإنسان فهو مخطئ .. لكن ...

قلت له منتقيًا كلماتى :

ـ « هنا يكون من الجلى للممتحن أن الفزع هو

السبب .. لكنك تستطيع أن تجد وهجًا خاصًا فى كلام الفتى .. فى منطقه .. فى عينيه .. شىء يخبرك أنه هو حقًا من كتب الإجابات الشفهية المبهرة .. أما هذا الفتى .. »

وفتحت ذراعى بحركة ذات معنى :

ـ « فلا يملك أى بريق .. إن ذكاءه لا يفوق ذكائى فى شىء .. »

ـ « يا سلام .. لماذا تلومه إذن ؟ »

ـ « لأننى لم أكتب ما كتبه هو فى الامتحان التحريرى .. »

جلس د. (رأفت) وقد بدا أن الأمور ستروق له .. لقد صار هذا مسليًا ..

قال لى :

ـ « وماذا تقترح أنت ؟ »

قلت وأنا أجلس بدورى وقد سرنى أن هناك من يصغى لى أخيرًا :

ـ « الجواب معروف .. أعتقد أن هذا الفتى كان يعرف موضوع أسئلة الامتحان التحريرى من قبل .. وقد تدرب على الإجابة كثيرًا جدًا .. »

بدا عليه عدم التصديق وغمغم قائلاً :

ـ « هذا يفتح أبواب الجحيم على الجميع .. تسرب أسئلة امتحان ! من الأسهل أن تتهم الفتى بقتل (كنيدى) أو حرق روما .. ثم إنك تعرف أستاذ المادة .. وتعرف أنه لا شىء يمتعه قدر أن يتعذب الطلاب أمام أسئلة لا جواب لها .. هل تعتقد أنه يتنازل عن هذه اللذة مقابل مال ؟ »

حقًا لا .. لا أتصور أن يتنازل الرجل عن لذته السادية مقابل مليونين من الجنيهات .. إنه قاس سادى لكنه شريف .. لا أحد ينكر هذا .. وسبب شرفه أن لذة التعذيب تفوق لذة الثراء عنده ..

فكرت مليًا ثم قلت :

ـ « هل من سبيل آخر للتسرب ؟ »

قال باسمًا :

ـ « أنت تعرف أن هذا مستحيل .. الرجل حذر وحريص جدًا .. لو تسربت أسئلة الامتحان فلا سبيل لذلك إلا الأستاذ نفسه .. »

ثم قرر أن الجزء الممتع من المناقشة قد انتهى ، فراح يجمع أوراقه من جديد وقال لى :

ـ « لماذا لا تخبر العميد بشكوكك ؟ »

قلت فى كياسة :

ـ « من الغريب نوعًا أن أشكو له لأن أجوبة أحد الطلبة ممتازة .. لا يوجد دليل قوى ملموس .. خاصة أن كلامى كما تقول أنت سيفتح أبواب الجحيم ، وسيظن العميد أننى أعرف أكثر مما أقول .. »

ـ « إذن .. لماذا لا تمارس الحل القديم العبقرى ؟ »

ـ « وما هو ؟ »

ـ « انس الموضوع واخرس .. »

حقًا .. أنت عبقرى يا (رأفت) .. إن أروع الحلول هو أبسطها دائمًا ، وبالطبع لم يخطر لى ببال ..

* * *

حين علقوا النتيجة هرعت لأراها على سبيل الفضول ..

أردت أن أرى ما حققه الفتى فى بقية المواد ، وهى بالطبع ليست نزهة .. وبالفعل وجدت أنه لم يحصل على تقدير الامتياز فى أية مادة ..

ما معنى هذا ؟

معناه على الأرجح أن إجابة الفتى كانت مبهرة كالعادة فى كل الامتحانات التحريرية ، بينما كان مخيبًا للآمال فى الامتحانات الشفهية .. امتزج العلقم بالعسل فصار الناتج سائلاً ليس كريهًا وليس حلو المذاق ..

لكن كثيرين لاحظوا الشىء ذاته ، وبين الأساتذة بدأت همسة تتكرر :

- « (محمود زاهر) »

سيذكر كل أستاذ فى الكلية أنه - لمرة على الأقل - رأى ورقة الإجابة التى يعجز هو عن كتابتها ..

وتساءلت أستاذ فى قسم الأمراض الجلدية وهى تضرب كفًا بكف :

- « من أين جاء هذا الفتى ، وماسره ؟ »

* * *

- « لا سر له .. »

قالها لى (عادل توفيق) وهو من طلبتى ، لكنى أعتبره صديقًا حميمًا .. وهو - بشكل أو آخر - جاسوسى الخاص بين زملائه .. لا أعنى أنه ينقل لى شيئًا مهمًا إلا ما قاله الطلاب عن تلك المحاضرة أو تلك .. ما فهموه وما لم يفهموه .. ما يكرهونه فىّ وما يحبون (إن كانوا يحبون شيئًا ما) ..

أضف لهذا أنه يؤدى دور ضابط الاتصال بينى وبين العالم الذى صار قصيًا .. عالم الشباب .. أفكارهم .. تعبيراتهم .. طموحاتهم .. ومن حين لآخر أسمع منه آخر الأخبار كى أبقى معاصرًا ولا أتحول إلى (ماموث) متحجر ..

سألته فى مكتبى عن هذا الـ (محمود زاهر) .. هل هو عبقرى ؟ هل لـه قريب فـى ألمانيا يدعـى (روبرت كوخ) أو قريب فى إنجلترا يدعى (هالستيد) ؟ هل ينزف دما أزرق حين يجرح ؟

فقال لى وقد رسم على وجهه علامات التقزز :

ـ «إنه لايملك أية موهبة ..وحديثه أغبى من مستنقع .. »

بدت لى هذه الإجابة تناسب بالضبط آرائى الخاصة عن الفتى ، فعدت أسأله :

ـ « هل تعنى أنه معكم من فترة ؟ »

ـ « من السنة الإعدادية .. »

كان الطب فى تلك الأعوام مسبوقا بسنة تدعى (السنة الإعدادية) .. وعلى كل حال معنى هذا أن الفتى لم يأت من الفضاء أو من عالم الأطياف .. أنتم تعرفون أننى أرتاب فى الطلبة الذين يظهرون فى الكليات فجأة .. ولى معهم خبرات غير مريحة ..

ـ « ولم يظهر أى تفوق من قبل ؟ »

مط شفتيه فى مزيد من الاشمئزاز الفلسفى:

ـ « بالطبع لا .. »

عدت أحك صلعتى مفكرًا .. وسألته :

ـ « وتلك الإجابات المبهرة التى ؟ »

قال فى ضيق :

ـ « مجرد محظوظ آخر .. هناك طلاب لا يقرءون إلا الصفحة السابعة والعشرين من الكتاب ، وفى لجنة الامتحان لا يكون هناك إلا سؤال واحد هو من الصفحة السابعة والعشرين .. أما تعساء الحظ على شاكلتى فهم إذا حفظوا الكتاب غيبًا ، ونسوا أن يحفظوا السطر العاشر من الصفحة التسعين ، كان معنى هذا أن الامتحان قد تحدد : أكتب السطر العاشر من الصفحة التسعين ! »

ثم هز رأسه كأنما يتناسى هذه الذكريات الموجعة :

ـ « مجرد محظوظ آخر .. واحد من هؤلاء الذين لم يكتشف أحد أنهم حمير جر حتى اليوم .. »

ابتسمت برغمى وبرغم غيظه المستعر ، فتعبيراته راقت لى ، وإلى حد ما أنا أفهمها .. لكن هذه ليست

الإجابة .. قانون الصدفة ليس جاهزًا ليرد على كل شىء فى كل لحظة .. أنا لا أؤمن بهذا .. إن المصادفات تحدث وكثيرًا جدًا ، لكن من العسير أن تبنى عليها استنتاجاتك أو خططك ..

عدت أسأله فى كياسة وبصوت خفيض :

ـ « هل تعتقد .. »

وابتلعت ريقى باحثًا عن كلمات مناسبة :

ـ « لنقل إننى أفترض ولا أتهم أحدًا .. هل هناك ما يحملك علي الاعتقاد بأن هذا الفتى كان يعرف الامتحان مسبقًا ؟ »

بدت عليه حيرة غبية ، وقلب السؤال فى ذهنه مرارًا ، ثم قال :

ـ « لا أعتقد يا سيدى .. لو أن شيئًا كهذا حدث لعرفناه على الفور .. فى الغالب لايستطيع فتى كهذا أن يكتم سره طويلاً .. لابد أن يخبر به أحد الذين لايستطيعون الكتمان طويلاً .. وهكذا . حتى لو لم

يعرف أساتذة الكلية شيئًا ، فإننا نحن الطلبة نعرف فيما بيننا .. وتتعالى الهمسات .. »

ثم نظر إلى ساعته واستأذن كى ينصرف .. كنت أعرف أنه مشغول دائمًا لا أدرى بأى شىء .. لكنه أكثر انهماكًا من رئيس وزراء نشط ..

وحين جلست وحدى فى المكتب قلت لنفسى : لابأس .. ثمة شىء ما لايمكن فهمه ولاتفسيره .. لكن دورى انتهى هنا .. لم أعد مولعًا بدس أنفى فى كل شىء كما كنت فيما مضى ..

وبالطبع لم أكن أعرف أن هذا الموضوع هو قصتى القادمة ، ولا أن الأمور سترتفع من تلقاء نفسها إلى أنفى لتجعله يندس فيها برغمه ..

* * *

نحيلاً تعسًا مبعثر الثياب خجولاً ، يقف على باب مكتبى وهو ينقل قدميه علامة على الارتباك .. مضى ربع دقيقة وأنا لا أشعر بأنه هناك على باب غرفتى ..

كنت أصغى باهتمام إلى مريضة عجوز ثرثارة تجلس
على فراش الكشف وتحكى قصة حياتها منذ أن كانت
ـ وهى رضيعة ـ تفضل الكراوية على الينسون ،
والسبب هو أن لبن أمها يسبب لها عسر الهضم ..

هنا شعرت بوجوده .. عرفته على الفور ..

ـ « تعال يا محمود .. »

فهز رأسه وتقدم إلى داخل الحجرة ، وانتقى مقعدًا
ليجلس عليه .. كانت لديه عادة لم أحبها كثيرًا هى
إدخال إصبع فى أنفه لينقب كلما شعر بالارتباك ..
وأدركت أننى لن أصافحه مهما حدث ..

ماذا يريد منى ؟ هل جاء ليعتذر ؟ عن أى شىء ؟

شرحت له بالإنجليزية تفاصيل الحالة ، فراح يهز
رأسه فى ذكاء ويقول مرارًا وتكرارًا :

ـ « فقر دم .. آه ! نعم .. فقر دم .. »

وكنت معتادًا على الغباء ، لكن هذا الفتى لم يكف
عن إبهارى بأسوأ الاستنتاجات وأغبى التعليقات ..

حتى دعاباتى العابرة لم يفهمها برغم أن العجوز
الأمية ضحكت لأنها راقت لها .. واكتفى هو بترديد :

ـ « آه ! فقر دم .. هذا مهم .. »

فى النهاية شكرت المريضة ، وانتظرت حتى
غادرت الغرفة ، فجلست فى مقعدى وسألته :

ـ « حسن ؟ »

وأرجعت ظهرى للوراء ، وعقدت أناملى لأوحى
بالنهم الفكرى ..

قال فى شىء من الحرج وإصبعه لا يفارق أنفه :

ـ « الحقيقة أن لدى رسالة مهمة لسيادتك .. رسالة
من صديق .. »

ـ « هل لى أن أعرف من هو ؟ »

ابتسم فى بلاهة وقال :

ـ « أوصانى ألا أتكلم أبدًا .. »

ـ « هذا جميل .. على الأقل قل الرسالة .. »

قال كأنما يملى درسًا راجعه ألف مرة :

- « يقول لك أن تحترس .. مساء يوم الجمعة ١٧ يونيو .. »

ملت نحوه ونظرت إليه مدققًا .. بعد قليل سألته السؤال الوحيد الممكن :

- « لأحترس من أى شىء ؟ »
- « لم يفصح .. »
- « من هو الذى لم يفصح ؟ »
- « هذا الذى أوصانى ألا أتكلم .. »

هل هذا تهديد ؟ من الواضح أنه ليس كذلك .. الفتى لايمارس دور القوى .. وبالتأكيد ليس الأمر بهذه البساطة كأنما يريد منى ألا أبحث أكثر فى موضوع الامتحان المتسرب .. كلا .. هذا جدير بأفلام المافيا لكن ليس هذا الفتى الخائف ..

لكن لا يوجد تفسير آخر لهذا الذى يقول ..

قلت له وأنا لا أبدل من جلستى :

- « هل تعتقد أننى سأصدق حرفًا ؟ »

قال وهو يتضرج حمرة :

- « فى الحقيقة لا .. لكنى أتوسل لك أن تصدق يا سيدى .. أنا لم آت إلا للمصلحة .. نحن نحبك ونكره أن يصيبك مكروه .. »

كنت أستطيع أن أكون فظًا .. وهذا من حقى .. ولن ألوم أى واحد آخر يمسك بتلابيب الفتى وينتزع منه تفاصيل الموضوع ، لكنى بالطبيعة أكره إرغام الصحفى على كشف مصادره .. ثم إن الفتى واهن حقًا .. مرتبك حقًا .. كأنه دجاجة . وأنا لا أقدر على إيذاء أو ترويع دجاجة ..

قلت له فى برود :

- « ليكن .. أنت أبلغتنى برسالة .. صحيح أنها غامضة محيرة ، لكنها وصلت .. ولو شعرت بأنك تريد التحرر من وعدك ، وتريد إبلاغى بتفاصيل أكثر .. فأنا أرحب بك .. »

هز رأسه فى ارتباك ونهض ومد يده يصافحنى

شاكرًا معتذرًا عن كل هذا الإزعاج .. ثم انصرف ..

ولدقائق ظللت أرمق الباب الذى خرج منه شارد الذهن ..

ثم تذكرت أننى صافحته .. فانصرف تفكيرى إلى أمور أخرى !

* * *

٣ ـ كاميليا ..

موعد هذه الليلة ..

لا ليست هذه ليلة الجمعة إياها لو كان شىء كهذا قد جال بخاطركم ..

كان عندى موعد مع الدكتورة (كاميليا) أستاذ الفلسفة .. أنتم تعرفونها جيداً .. وأكون شاكرًا لو أزلتم عن شفاهكم هذه البسمات الخبيثة ، والنظرات التى تقول بوضوح تام (أيوه ياعم) .. كلا .. ليس الأمر كذا ، وأنتم تعرفون الدكتورة (كاميليا) وتعرفون أنها لاتمثل لى إلا صديقًا ذكيًا .. فقط هو طويل الشعر بالمصادفة ، وتحمل خلاياه زوجين من الكروموسومات من طراز XX بدلاً من XY .. هذا كل شىء .. وهذا ليس سببًا كافيًا كى أقطع علاقتى بها .

د. (كاميليا) عصبية نوعًا .. من الطراز الذى

يرى أن (الأمور لم تكن قط بهذا السوء) .. لكن عقلها جبار ولا أنكر هذا .. من الجميل أن يلقى المرء من حين لآخر من يشعر أمامه بأنه غبى .. هذا يجعلك تتخلى عن الشعور المزعج بأنك أذكى إنسان عرفته ..

كان لقاؤنا فى مطعم على شىء من الرقى ، وقد استعددت لهذا واخترت البذلة الكحلية على سبيل التغيير ، وكنت عاكفًا على حلاقة ذقنى حين دق جرس الهاتف ..

ـ « د . (رفعت) ؟ »

ـ « أنا هو .. »

جاء الصوت الواثق الثابت كيد رام محترف :

ـ « حاول أن تنصرف من المطعم قبل العاشرة ! »

مرت لحظة أحاول ابتلاع هذا الذى قيل فيها .. كان يحمل الكثير من الحقائق .. لكن الوقت لايتسع كى أفقد كل شىء ..

قلت بالعصبية اللازمة :

ـ « من المتكلم ؟ »

قال بنفس البرود الثابت :

ـ « شخص يهمه أمرك .. »

ـ « وماذا سيحدث فى العاشرة ؟ »

ـ « الكثير من الأذى .. »

وظل منتظرًا رد فعلى ، ولم يضع سماعة الهاتف كما توقعت فى هذه الأمور .. قررت أن أغيظه فقلت فى برود وقد استجمعت شتات أعصابى :

ـ « شكرًا .. »

ثم وضعت السماعة .. طبعًا هو كان يتحرق للمزيد من (اللت والعجن) .. إنها متعة غير عادية أن تلعب دور الغامض العليم ببواطن الأمور وأن يسألك الآخرون فى لهفة عما تعرفه ..

حسن .. أنا حرمته هذه المتعة وإنها لقسوة غير عادية منى ..

لكنه يستحق ..

* * *

- « لكنك لست على ما يرام .. »

قالتها (كاميليا) وهى تراقبنى وأنا أعبث بالشوكة فى طبقى شارد الذهن .. كان المطعم راقيًا بالفعل .. موسيقا ساكس تنبعث من مكان ما ، وإضاءة خافتة تجعلك غير متأكد مما إذا كنت تأكل لحمًا أم صراصير .. شموع غليظة حمراء على الموائد تذكرك بحفلات إحياء الزومبى فى الكاريبى .. وهمس يخيم على الجو قادمًا من الموائد المحيطة بنا .. كل شىء رائع ولا ينقصه إلا أن نكون حبيبين يعيشان حلمًا ، وهو ما لم يكن واردًا للأسف .. رجل أصلع نحيل كسحلية يحاول اصطياد المكرونة بشوكته ، يجلس مع أستاذة فلسفة مسنة عصبية كذيل القط ..

كنت بالفعل شارد الذهن متعكر المزاج قليلاً ..

التاسعة والنصف .. ترى ؟

قلت لها وأنا لا أرفع عينى عن الطبق :

- « لا شىء .. مشاكل العمل كما تعرفين .. »

قالت فى خبث :

- « أم المزيد من الميتافيزيقا ؟ »

قلت لها وأنا أهز كتفى :

- « يد مومياء تريد العودة لقبرها .. أكلة لحوم بشر يعيشون فى مجارى (لندن) .. حفل يؤمه بعض ملوك الفراعنة ليمثلوا أدوارهم فى الحياة .. مسخ يطارد من ارتبطت حياتهم بالرقم ١٣ .. باختصار : وتيرة حياتى المعهودة .. »

- « الإيقاع الرتيب الممل إياه .. »

- « نعم .. »

وشاعت على وجهها ابتسامة ساخرة وقالت :

- « أحيانًا أشعر بأنك مجذوب أو مخبول .. لكن الدلائل .... »

قلت لها فى سماجة :

- « لقد مر وقت طويل على الزمن الذى كنت أحاول فيه التظاهر بأننى رائع .. أنا هو أنا .. خذينى أو اتركينى .. »

قالت وهى تعقد يديها تحت ذقنها الحادة :

ـ « أنت خشن الطباع كذلك .. »

ـ « حدث ما يقلقنى نوعا هذه الليلة .. »

العاشرة إلا الربع ..

وما لم أقله لها هو أننى بالفعل أشعر بالتوتر ..

تلك الحاسة العجيبة التى لدى ـ ربما كانت سادسة أو سابعة لا أدرى ـ تقول لى بوضوح تام :

غادر هذا المكان حالاً .. لاتبق أكثر من هذا .. فر كأنما الجحيم يطاردك ..

لماذا ؟ لا أدرى .. لكن القطط تتوتر لأسباب كهذه قبل الحرائق ، والنمل يغادر جحوره لأسباب كهذه قبل الزلازل ..

ورفعت عينى لأرمق الموائد المحيطة .. لايبدو أن هناك سفاحًا مجنونًا أو قاتلاً محترفًا ينتظرنى .. صحيح أن الظلام دامس لكن بوسعى أن أرى ظلال الوجوه فى ضوء الشموع .. كل واحد يثرثر مع جليسته ولايهتم بما يدور حوله ..

ولكن .. لحظة ..

هل ترى هذه المائدة الصغيرة على بعد خمسة أمتار منا ؟

هذا الرجل الجلس إليها .. ألا يبدو مألوفا بشكل ما ؟ ألا ينظر لى فى ثبات ؟

لماذا ينظر لى فى ثبات ؟ ربما لأننى أنظر إليه ؟ لكن لا .. أنا متأكد من جلسته إنه يراقبنى فى ثبات ومن زمن ..

لا أتبينه بوضوح لكنه يرتدى بذلة أنيقة .. وفى يده قداحة ذهبية تلمع فى ضوء الشموع ، يحملها ثانيًا رسغه بأناقة تذكرنى بالأخ (جيمس بوند) فى تلك الأوضاع التى يجيدها ..

لماذا هذا التوتر الغريب ؟

النداء فى مؤخرة رأسى يكرر بلا هوادة :

الآن .. الآن يا أحمق .. يجب أن ترحل .. يجب ..

ومن مكان ما جاء صوت (إلفيس بريسلى) الرخيم يقول :

« أرى تغييرًا آتيا إلى حياتنا ..

« لم تعد الأمور كما كانت ..

« ولم يفت الوقت بعد كى ندرك الحقيقة ..

« نحن لا نناسب بعضنا .. »

الصوت الرخيم الذى جعل النقاد يصفونه بأنه صوت زنجى يخرج من حنجرة بيضاء .. الغريب أنه يزيد من توترى وكان الأحرى أن يهدئنى ..

الرجل الجالس يرفع معصمه .. ينظر فى ساعته .. يهز رأسه فى حسرة ..

إنه يدس يده فى جيبه .. ماذا سيخرج منه ؟

« لقد ولى الحب وتركنا مجرد صديقين ..

« كل ما بقى لنا هى الذكريات ..

« حين كنا نحسب أننا نبالى ببعضنا .. »

إنه يلقى ببعض الأوراق المالية تحت كأس .. ثم يمشى فى تؤدة نحو باب الخروج دون أن ينظر لنا ..

العاشرة إلا خمس دقائق ..

هنا كان النداء فى أعماقى قد تحول إلى صراخ ..

« يومًا ما حين تكبر ابنتنا ربما تفهم ..

« لماذا لا يعيش أبواها معًا ..

« إن الدموع التى ستسيل من عينيها .. وأنا أودعها ..

« ستدمى قلبى للأبد .. »

هنا جاءت اللحظة ..

مسحت فمى بالمنشفة .. نهضت وألقيت على المائدة ببعض الأوراق المالية ، وصحت فى (كاميليا) أن علينا الرحيل حالا ..

ـ « لكننا لم نفرغ من الأكـ ... »

ـ « فيما بعد .. سأدعوك إلى بعض الشطائر .. فيما بعد .. »

فى توتر تناولت حقيبتها ولحقت بى وأنا أجد السير نحو الباب .. واستطاعت برغم كل شىء أن تبتلع ما فى فمها وأن تقول شيئاً على غرار :

- « إن أطوارك الغريبة هذه سوف تقودك إلى البيمارستان .. وأنا معك .. »

« أرى تغييراً آتيا إلى حياتنا ..

« لن تظل الأمور كما كانت .. »

لكنى كنت قد وصلت إلى السيارة العجوز الواقفة وسط السيارات الأخرى فى الظلام .. فتحت لها الباب وجلست خلف المقود .. بينما الصوت الذى يتردد داخلى قد راح يهدأ ثانية ..

نجوت ! نجوت !

جاء منادى السيارات يظهر لى مدى حماسته وإخلاصه ، بأن يقف أمام السيارة كى يمنعها من الانطلاق ، وبمنشفة متسخة راح يحيل الزجاج الأمامى إلى سطح رمادى متجانس .. وكنت أنا نافد الصبر إلى حد أن ....

هنا سمعته يصيح فى دهشة :

- « يا ساتر يارب !! »

وأخرجت رأسى من النافذة لأن الزجاج الأمامى صار جسماً معتماً كريه الرائحة .. فرأيت .. رأيت ألسنة اللهب تندلع من المطعم .. من النوافذ السفلية ..

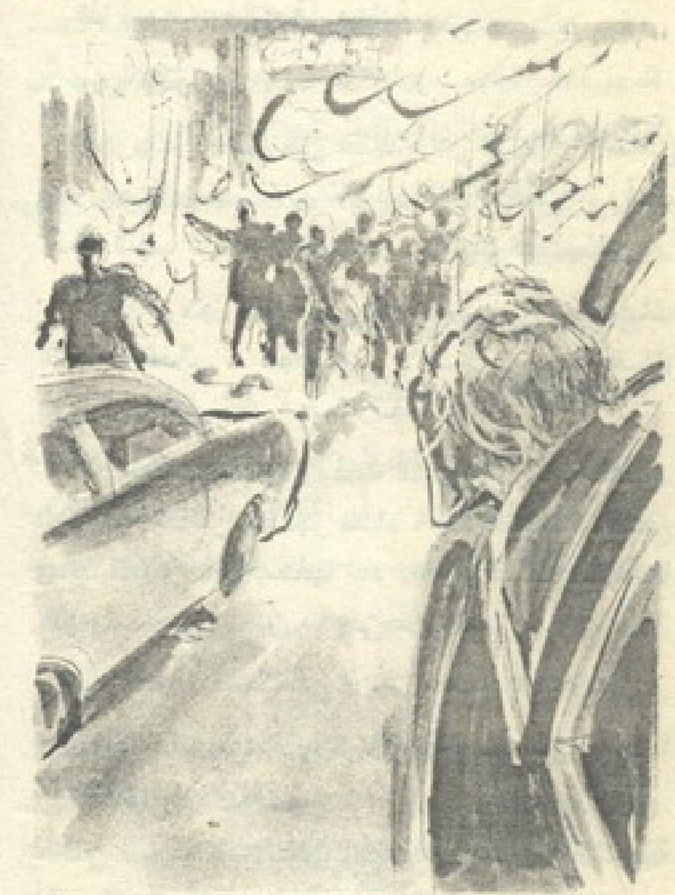
وحش مزمجر متوحش يحاول التحرر .. وصرخات النساء تتعالى .. طبعاً هى الأعلى من صرخات الرجال والأكثر تأثيراً .. وارتجفت ..

فتحت باب السيارة ووقفت أنظر إلى هذا المشهد المرعب شاعراً بالعجز التام .. لو ألقيت بنفسى وسط النيران فلن يستفيد أحد .. ولو ظللت حيث أنا لاتهمت نفسى بالجبن ما بقى من حياتى ..

ماذا أفعل ؟ صحت فى الرجل بحسم :

- « فليطلب أحدكم رجال الإطفاء يا أحمق .. ماذا تنتظرون ؟ »

فتح فمه ليتكلم .. لكن الأضواء الحمراء والسرينة أخرسته على الفور ..



وأخرجت رأسى من النافذة لأن الزجاج الأمامى صار جسمًا معتمًا كريه الرائحة .. فرأيت .. رأيت ألسنة اللهب تندلع من المطعم ..

وفى اللحظة التالية تحول المكان إلى خلية نحل .. الرجال ذوو المعاطف الجلدية يركضون هنا وهناك .. ومن يفتح المضخة ومن يحمل (الباشبورى) .. ومن يصرخ ومن يستغيث .. ومن يشاهد هذا كله ..

غريب حقًا أن تصل عربة الإطفاء بهذه السرعة .. لابد أنهم تحركوا قبل أن يفكر الحريق فى أن ينشب .. هذا هو التقدم الحق ..

طبعًا كان من العسير تحديد عدد الضحايا ولامدى كفاءة عملية الإطفاء ، لكن لاينكر أحد أنها أسرع عملية إطفاء فى التاريخ .. ولو كان هناك ضحايا فيكفينا القول إنه لم يكن بوسع مخلوق إنقاذهم فى أى موضع من الأرض ..

وبعد نصف ساعة من الشرود والشهيق والذهول ، أدرت محرك السيارة وابتعدت .. بينما (كاسيليا) ترتجف كورقة .. أو كفخذ ضفدعة الخواجة (جالفانى) التى كان سيطبخها لزوجته على العشاء ..

وما زال صوت (ألفيس بريسلى) يتردد فى مؤخرة ذهنى :

« إن الدموع التى ستسيل من عينيها .. وأنا أودعها ..

« ستدمى قلبى للأبد .. »

* * *

٤ ـ فوزى شفيق (١) ..

حمدًا لله ..

لم يمت أحد .. بل إن الإصابات طفيفة كلها ..

عرفت هذا من الصحف بعد الحادث بيوم .. وكانت تشيد طبعًا بيقظة رجال الإطفاء الذين وصلتهم إخبارية تفيد بأن النيران اندلعت فى هذا المطعم .. وقد اكتشفوا أن السبب هو ثقب فى خرطوم غاز فى المطبخ .. والأجمل هنا أن الإخبارية جاءتهم فى التاسعة والربع مساء .. أى قبل نشوب الحريق بساعة إلا الربع ، وهو ما يوحى بأن هناك فاعلاً .. فاعلاً ارتكب الجريمة وأبلغ رجال الإطفاء قبلها على سبيل التسلية .. أو أن له شريكًا غدر به ..

كان هناك واحد فى المطعم يتوقع أن يحدث شىء .. لكنه لم يعرف ما هو ..

وكان هذا الواحد هو أنا ..

صباح يوم الحريق اتصلت بى د. (كاميليا) وقالت إنها مازالت مرهقة من التوتر العصبى Stress كما قالت (لأنها تحب استعمال الإنجليزية للتعبير عن كلمات لها مليون مرادف فى العربية) .. وقالت إنها ستحسن الظن بى بعد هذا لأنه من الواضح أن لدى حاسة سادسة مرهفة ..

ـ « حسبتك مجنونًا وأنت تهرع نحو الباب كالملسوع .. »

ـ « كثيرون يعتقدون الشىء ذاته ، ولم أعد أحاول تبرير نفسى .. »

وحين وضعت السماعة فرغت إلى نفسى أخيرًا .. فرغت لخواطرى الخاصة ..

لقد اتصل بى الفاعل قبل الحادث .. اتصل لينذرنى .. ولكن لماذا ؟

لا يوجد دليل على كلامى لكنى أرجح أن الرجل الذى

كان جالسًا فى المطعم .. الرجل الذى غادر المكان قبل الحادث بدقائق .. هذا الرجل هو ذاته من اتصل بى ..

كان فى مظهره شىء ما .. شىء يقول : أنا ذاهب .. القرار الآن قرارك أنت ..

ولكن لماذا ؟

* * *

لهذا سررت للغاية حين دق جرس الهاتف وهرعت أرد عليه ..

كان ذات الصوت الواثق الهادئ :

ـ « أنا (فوزى شفيق) .. سرنى أنك صدقتنى أخيرًا .. »

ـ « وسرنى أنك أبلغت (المطافئ) .. »

ثم ابتلعت ريقى وسألته :

ـ « لماذا أشعلت هذا الحريق ؟ أنا أعرف أن هناك مجانين إشعال حرائق .. هذا الجنون يسمى (بايرومانيا) ، لكننا لا نقابله فى مصر .. هنا يشعلون الحرائق لأسباب

عملية أكثر مثل إخفاء الاختلاسات قبل موسم جرد العهدة .. لكن هل هناك عهدة في المطعم إياه ؟ »

ضحك كثيرًا .. ثم ساد الصمت ..

بعد قليل قال لي :

ـ « انقذ ما تبقى من الدجاجة ثم عد لي .. »

ـ « دجاجة ؟ هل تمزح ؟ إن .. »

ثم صحت وأنا ألقى بالسماعة كالملسوع :

ـ « تبًا ! الدجاجة !! »

وهرعت إلى المطبخ لأجد المأساة الكاملة .. الدجاجة التى أعددتها للغداء ، والتى كانت فى آخر مراحل النضج قد تحولت إلى قطعة فحم صالحة لإنضاج دجاجة أخرى عليها .. وكان الدخان يتصاعد بكثافة بينما صار من العسير أن تعرف لون الجدار الذى فوق الموقد .. هل كان أسود من البداية ؟

حملت الوعاء إلى الحوض وفتحت الصنبور .. وطش ش ش ش ش ! تصاعد البخار الساخن الحارق ليملأ المكان معلنا نهاية آمالى فى غداء اليوم ..

طبعًا لم أنس أن أنظر جيدًا عبر نافذة المطبخ لأتأكد من أن أحدًا لا يراقبنى .. الأمر الذى كان سهلاً لأن المطبخ بلا نافذة أصلاً ..

جففت يدى وعدت إلى الصالة وحملت سماعة الهاتف ..

جاءنى صوته الهادئ :

ـ « هل بقى منها شىء ؟ »

قلت فى غيظ :

ـ « أنت عليم بهذه الأشياء ربما أكثر منى .. ولكن كف عن المزاح وقل لى : كيف عرفت هذا ؟ »

ـ « كنت أعرف أنك ستحرق دجاجتك .. »

ـ « ولماذا لم تتصل قبل هذا بعشر دقائق ؟ »

قال فى صوت لا مزاح فيه :

ـ « لأنه لا وقت لدى أضيعه فى إنذار الناس قبل احتراق دجاجهم .. »

بعد دقيقتين من صمت ثقيل قال :

ـ « الآن أنت تعرف أننى لم أشعل الحريق فى المطعم .. »

ـ « تريد القول إنك تتنبأ .. أليس كذلك ؟ »

ـ « بلى .. هل لديك تفسير آخر ؟ »

قلت فى عصبية :

ـ « أنا لا أصدق حرفًا من هذا الهراء .. »

ووضعت السماعة قبل أن يتكلم ..

بالنسبة لمن يزعمون التنبؤ أنا متأكد مما أقول .. الرجل الذى يجيد التنبؤ بالغد لن يظل هنا ليبهر الآخرين بكلامه .. إنه سيكون جالسًا هناك على عرش العالم ..

هذا الرجل الذى يعرف كل شىء .. الذى يعرف أسئلة امتحان الثانوية العامة ومتى تصحو الزلازل ومتى تشتعل الحروب .. الذى يعرف الخطط السرية للجيوش وموعد

وفاة أعدائه وموعد ارتفاع الأسهم فى البورصة .. الذى يعرف أين تستقر الكرة فى لعبة (الروليت) فى ملاهى (لاس فيجاس) ، وأية شهادات استثمار ستربح .. الذى يعرف أن سعر القطن سيرتفع بعد أسبوع من ثم يشترى كل الموجود فى السوق .. هذا الرجل ـ ببساطة ـ لن يضيع وقته فى إنذار الناس بأن دجاجهم يحترق ..

هناك قصة ممتعة لـ (مارك توين) تتلخص فى شاب أمريكى من هذا النوع ، اقنع أحد الأثرياء بشراء الموجود فى السوق من سلعة معينة ، لأن الحرب ستقوم فى أوروبا ، وسوف يكون لهذه السلعة سعر الذهب .. وبالفعل حدث ما توقعه الفتى .. وصار مليونيرًا .. الحقيقة أنه لم يكن يتنبأ ، ولكنه وجد جريدة بريطانية فى بطن سمكة قرش اصطادها على شاطئ الأطلنطى .. والجريدة كانت تحكى عن قيام الحرب فى أوروبا ..

طبعًا قبل اختراع البرق والهاتف والمذياع ، كانت

أمريكا ستعرف بالخبر بعد شهر على الأقل حين تصل السفن البريطانية إلى سواحلها ، أما الفتى فعرف القصة بعد أسبوع واحد !

الرجل الذى يتنبأ بالغيب ستكون حياته كلها تكرارًا لهذه التجربة ..

إذن كيف عرف الأخ (فوزى) ما عرف ؟

هناك تفسير ما .. لكنه بالتأكيد ليس التنبؤ ..

لقد عرفت موقفًا مشابهًا مع د . (لوسيفر) حين كان يقرأ أوراق التاروت ، وحسبت أنه يتنبأ .. الحقيقة إنه كان يقرأ أفكارى ويبنى عليها مستقبلاً لم يحدث .. لم لا ؟ إن قراءة الأفكار شىء وارد وثمة أدلة علمية لا تنفيه إن لم تؤكده .. لكن لا تكلمنى عن التنبؤ من فضلك ثم ..

جرس الهاتف من جديد ..

رفعت السماعة لأجد نفس الصوت يقول لى :

ـ « نسيت أن أقول لك .. »

صحت وقد صعد الدم إلى رأسى :

ـ « اسمع .. لو كنت تبغى التسلية فإن السيرك القومى .... »

قاطعنى بذات الثبات :

ـ « لا مزاح هنالك وأنت حر فى قرارك .. لكن هناك مريضًا يدعى (عبد البارى المنوفى) فى المستشفى وهو يتلقى العلاج الخطأ فى هذه اللحظة بالذات .. لو شئت أن تجده ميتًا غدًا فهذا شأنك .. »

صحت فى مزيد من العصبية :

ـ « أنا لا أعرف أحدًا بهذا الاسم .. »

ـ « ستعرفه لو ذهبت الآن إلى هناك .. »

ووضع السماعة ليثير غيظى .. كنت أنا المولع بهذه الأمور فيما سبق ..

وهنا بدأت مغامرتى التى تفوق مغامرات (طرزان) فى الأحراش ، وبطولات الكابتن (كوك) فى مجاهل المحيط : الاتصال بالمستشفى ..

طبعًا كان هذا مستحيلاً .. أضف لهذا أن الاتصال الهاتفى كان معجزة من المعجزات فى ذلك الزمن من منتصف السبعينات .. الآن لم يعد أمامى إلا حل من اثنين : إما أن أتجاهل الأمر وأعتبر هذا المدعى كاذبًا .. وإما أن أذهب إلى المستشفى حالاً ..

لو تجاهلت الأمر ولم يكن كاذبًا ، حملت دم هذا المريض ـ نسيت اسمه ـ على رأسى للأبد .. ولو ذهبت واتضح أن البلاغ كاذب فلسوف أشعر بالحماقة للأبد ، توطئة لأن تنمو لى أذنان طويلتان ..

طبعًا كان الاختيار سهلاً .. إن حمارًا مستريح الضمير لأفضل من قاتل بالإهمال ..

وارتديت ثيابى على عجل ، واستقللت سيارتى قاصدًا المستشفى .. وهى مهمة ليست سهلة فى شوارع القاهرة .. لاحظ أنها الواحدة ظهرًا وقد بدأت الذروة .. الذروة التى ستستمر حتى الرابعة بعد الظهر فى أفضل الأحوال ..

أخيرًا وصلت المستشفى مغبرًا ممزق الثياب ملوثًا بالعرق ..

هناك كان الطبيب المقيم جالسًا يتكلم مع صديق له ، وقد أدهشه قدومى لأن اليوم إجازتى .. قلت له محاولاً التذكر :

ـ « هل من مريض يدعى .. يدعى ؟ إنه ذلك الذى يتلقى علاجًا خاطئًا الآن .. أنت تفهم هذه الأمور .. »

تبادل النظرات مع زميله .. أعرف هذا النوع من النظرات على كل حال ..

لم يكن هناك من حل سوى أن أقتاده من معصمه إلى العنابر ، ومررنا على أسرة المرضى واحدًا تلو الآخر .. سيكون الأمر معقدًا لأننى سأضطر إلى مراجعة تعليمات العلاج كلها ..

لكن الفرج جاء بشكل غير متوقع ..

كان المريض الراقد فى الفراش الثالث نائمًا حقًا .. وقد علقوا جوار فراشه كيسًا من الصفائح الدموية فهو يعانى من النزف إذن ..

لكن كانت هناك مشكلة .. إن الخرطوم الذى يتدلى من الجهاز حاملاً الصفائح إلى أوردة المريض .. هذا الخرطوم لم يكن مثبتًا إلى الوريد .. كان يتدلى على الأرض بجوار الفراش ومحتواه من السائل الثمين يسيل فى بركة صغيرة ما انفكت تتسع ..

المشكلة الأفدح هى أن الإبرة كانت مثبتة فى وريد المريض وكانت تنزف دمه بانتظام .. الدم الأحمر يختلط بالصفائح الدموية على أرض العنبر ، بينما كان على السائلين أن يختلطا فى جسد المريض لا خارجه ..

ـ « ما اسم هذا المريض ؟ »

ـ « اسمه .. اسمه .. » ـ ومد يده ينظر إلى غلاف التذكرة ـ « اسمه (عبد البارى المنوفى) .. »

ولم أكن بحاجة إلى السؤال لأنى كنت أعرف أنه هو .. بالتأكيد هو بصرف النظر عن الاسم ..

مددت يدى وقمت بتثبيت طرف الخرطوم إلى الإبرة لأمنع المزيد من هذه الكارثة ..

ثم نظرت نظرة صامتة إلى الطبيب الشاب الذى استحال لونه كلون الليمون .. صاح فى هستيريا ينادى الممرضات ويطلب قياس ضغط دم هذا المريض ..

كان الإهمال واضحًا جليًا .. الممرضة التى ثبتت الإبرة فى ذراع المريض لم تعن بتثبيت طرف الخرطوم فيها ، وهكذا كان المريض ينزف دمًا وكيس الصفائح ينزف مالاً ..

لو تأخرنا نصف ساعة لفوجئنا بجثة خالية من الدماء ، يعجز عن صنعها كل مصاصى دماء رومانيا ..

وبعد دقائق بدأ المريض يتحسن .. وأدركت أنه نجا ..

لكن ماذا لو لم ينج ؟

لابد من عقاب صارم للجميع ..

* * *

وحين دق جرس الهاتف وسمعت صوته ، كنت أقل عدوانية :

ـ « أشكرك على النصيحة .. لو مات هذا المريض لقتلنى الهم .. طبعًا أنت عبقرى وتعرف أننى أنقذت حياته .. »

قال فى برود :

ـ « هدفنا أن نسعدكم .. »

هنا قررت أن ينتهى أوان اللهو وأن نضع كل شىء على بلاطة كما يقولون ..

قلت له فى حدة ولهجة قاطعة :

ـ « أنت مفيد .. لكن الوضع لن يظل كذا للأبد .. إن لدى بعض أسئلة .. أولاً من أنت .. ثانيًا كيف عرفت ما تعرفه .. ثالثًا لماذا أنا بالذات ؟ »

ضحك ضحكته الخفيفة التى لاتمت للضحك لكنها ابنة عم بعيدة له ..

ـ « تريد أن تعرف هذا كله فى الهاتف ؟ »

ـ « أريد أن أعرفه ولا يهم أين .. »

قال فى ثبات :

ـ « حسن .. لابد من لقاء .. وفى اللقاء تفهم أغلب الأمور وليس جميعها .. ولكن ليكن اللقاء فى مكان أحدده أنا .. »

ـ « اختر أنت المكان .. »

وتذكرت باسمًا قصيدة (نزار قبانى) : انتقى أنت المكان .. انتقى أى مكان ..

قاطع الرجل القصيدة قائلاً :

ـ « المقطم منتصف الليل .. عند .... »

قلت فى غيظ :

ـ « لماذا لاتختار الصحراء الغربية أو الربع الخالى أو (ألاسكا) ؟ إن المقطم يبدو مكانًا سهلاً أكثر من اللازم .. »

ـ « إذن هو المقطم مادام يناسبك إلى هذا الحد !! »

كدت أصاب بالفالج من الغيظ .. إما أنه يتلاعب بى أو هو مطلق الغباء .. قلت :

- « ولكن أين بالضبط ؟ »

- « لا تقلق .. فقط اذهب هناك وأنا سأجدك .. »

ثم ضحك من جديد ضحكته الخالية من المذاق وقال :

- « لا تنس أن هذا عملى ! »

* * *

٥ ـ فوزى شفيق (٢) ..

منتصف الليل إلا قليلاً .. أكره أن أخلف مواعيدى كما تعلمون ..

المقطم يقف شامخاً رهيباً كوحش غاف فى الظلام ..

الأضواء تلتمع من بعيد وأضواء سيارتى ترتسم على معالم الطريق كأنها تقول لى فى كياسة :

أنت أحمق ..

هذا يبدو ككمين .. أعرف هذا .. لكن لأى غرض ؟ الكمائن تنصب للأثرياء أو الثوار أو الصعاليك أو الطغاة أو الفارين من ثأر .. وأنا لا أنتمى لأى واحد من هذه القائمة ، ولست مهماً إلى حد أن يكون لى أعداء .. إن خصومى ـ من بقى حياً منهم ـ هم الزومبى والمسوخ والمذءوبون ومصاصو الدماء ، وهؤلاء السادة جميعاً يتمتعون بالخيال الخصب وحرية الانتقال.. ليس لأحدهم من السماجة بحيث يدفعنى إلى لقاء فى هذا المكان ..

هذه سماجة بشر .. فقط البشرى يمكن أن تبلغ بـه القسوة هذا الحد مع كهل مثلى ..

ولكن كيف سيجدنى هذا العبقرى ؟

* * *

أخيرًا وجدت مكانًا يسمح لى بالتوقف .. جذبت فرملة اليد وغادرت السيارة وإن أبقيت كشافاتها مضاءة ..

حقًا كان المكان بهيجًا .. الظلام .. الصخور .. الخواء .. ثم زاد الأمور بهجة أن الضباب بدأ يرتفع فى هذه الساعة المبكرة .. الغد سيكون حارًا كما يقول من يفهمون هذه الأمور ..

كشاف السيارة يضىء الضباب ، فترى الجزيئات المترقصة السابحة بتلك الحركة (البراونية) التى لا أذكر كنهها بالضبط .. تسمع صوت كائن ما يتردد فيجيبه صوت كائن آخر .. لا .. ليس صرصورًا ولا ذئبًا ولا بومة .. إنه ذلك الكائن الذى لم يوجد بعد ، والذى ينتظر أول مريض عقلى يقف هنا وحيدًا ليلاً ..

نظرت فى ساعتى ..

سأنتظر كالأحمق عشر دقائق ثم أغادر المكان لا ألوى على شىء ..

عشر دقائق من الحماقة تبدو مناسبة جدًا ..

ومن مكان ما كنت أسمع أغنية إنجليزية لا أدرى هل لها وجود حقًا ، أم هى تتردد فقط فى ردهات عقلى الباطن ؟

* * *

وداعًا أيها الغريب ..

كانت إقامتك قصيرة ، لكنها كانت رائعة ..

عسى أن تجد جنتك التى فتشت عنها كثيرًا ..

وداعًا أيها الغريب ..

كانت زيارتك رقصة من رقصات الظل ..

قطرة من قطرات الندى قبل شروق الشمس ..



ونظرت إلى الوراء وأجفلت .. كان قادمًا من الجهة العكسية حيث لا تسقط عليه كشافات السيارة ..

لحنًا سمعناه لثوان هنالك من الدغل ..

ثم هززنا الرءوس وقلنا إننا توهمناه ..

وداعًا أيها الغريب ..

لكن كل شيء ينتهي ..

* * *

ومن مكان ما جاء ..

شعرت به قبل أن أراه ..

ونظرت إلى الوراء وأجفلت ..

كان قادمًا من الجهة العكسية حيث لا تسقط عليه كشافات السيارة، لكن بعض الضوء جعل حدود جسده تتضح .. لا داعي للتخفي أكثر يا بني .. أنت الفتى الذي كان جالسًا في المطعم ليلة الحريق .. لن أنسى هذين الكتفين والشعر الثائر على جانبي الرأس .. يثني رسغه بالقداحة بطريقة (جيمس بوند) ويشعل لفافة تبغ ..

هذا الفتى غامض مخيف أو يصطنع الغموض ..

قلت له مازحًا :

ـ « هل أحضرت النيجاتيف ؟ »

ولفظت كلمة (نيجاتيف) بالطريقة الفرنسية كما يلفظها (إستيفان روستى) فى الأفلام .. فالموقف كله يوحى بعملية إجرامية . أو كأن صفقة مريبة ستجرى الآن : النقود مقابل النيجاتيف ..

لكن الغبى لم يفهم الدعابة ، وسألنى بذلك الصوت الهادئ الذى لن أنساه ما حييت :

ـ « أى نيجاتيف ؟ عم تتحدث ؟ »

ـ « دعك من هذا ولندخل فى الموضوع .. أولاً لماذا لا تكف عن هذه الطريقة البوليسية المراهقة وتظهر فى النور ؟ »

كذلك .. أشعل اللفافة بحنكة وتصاعد الدخان الأبيض :

ـ « لا أستطيع .. ولا تسأل عن السبب .. »

عدت أسأله سؤالاً ثانيًا من الأسئلة غير المتوقعة :

ـ « هل أنت د. (لوسيفر) ؟ »

كان هذا السؤال قد جال بذهنى عدة مرات .. أسلوب الرجل المسرحى فى العمل يذكرنى بد . (لوسيفر) .. وكأن هذا مقلب ما يدبره لى ..

لكننى كنت أعرف أفضل .. أعرف أن هذا ليس د. (لوسيفر) .. لقد اكتسبت خبرة لا بأس بها بهذا الأخير .. صرت أتوقع ظهوره وأستبقه بشكل أو بآخر .. حتى حين يبدل مظهره لم يعد يخدعنى كثيرًا ..

أعنى أن (لوسيفر) يملك هالة معينة أشعر بها بسهولة ..

قال الفتى غريب الأطوار :

ـ « لست هو .. ثق بهذا .. »

ـ « أنت إذن تعرف عمن أتكلم ؟ »

ـ « أعرف كل شىء عنك .. »

قالها فى ملل كأنما هذا كله مفروغ منه ..

سألته السؤال الأول الذى لا أتوقع له إجابة واضحة :

ـ « من أنت ؟ »

ـ « أنا (فوزى شفيق) .. »

ـ « أنت تعرف أننى لا أتقيد بحدود اللغة فى سؤالى .. من أنت تعنى (ما أنت ؟) .. »

وتذكرت ما يقوله اللغويون .. عندما تقول لصديقك : هل من الممكن أن تغلق الباب ؟ السؤال هنا معناه الأمر ولايطلب المعلومة .. ومن السماجة أن يرد صديقك : نعم يمكننى غلق الباب ..

قال فى تؤدة :

ـ « لنقل إننى صديق .. يهمه أمرك .. هل هذا كاف ؟ »

ـ « وهذه القدرة التنبؤية الخارقة التى تتمتع بها ؟ »

أطلق سحابة كثيفة وقال :

ـ « موهبة إلهية كرهت أن أستأثر بها .. إننى ألعب مع الناس دور الأب الذى يهديهم العلم .. والعلم هو أثمن سلاح يمكن أن تقدمه لخراف تمشى نحو الهاوية .. بعد هذا فليتصرف كل واحد كما يحلو له .. »

ـ « هذا يقودنا إلى السؤال الأخير : لماذا أنا بالذات ؟ »

أضواء سيارة ترقرقت من بعيد ، ودوى صوت محرك ، وسمعنا صوت شباب يتضاحكون من داخل سيارة ! قال وهو ينظر باتجاه الصوت :

ـ « حادث مؤسف آخر بسبب السرعة ! إن هؤلاء الشباب لا يتعظون ! »

ـ « هل تعنى أن هذا سيحدث لهم الليلة ؟ »

ـ « بالتأكيد .. »

ونظر فى ساعته وغمغم :

ـ « بعد عشر دقائق من الآن وهم عائدون من المقطم .. سيموت أربعة ويقضى الخامس حياته على مقعد متحرك ! »

ـ « ولماذا لا تنذرهم ؟ »

ضحك ضحكته الخالية من معنى الضحك ، وقال :

ـ « وكيف ألحق بهم ؟ ثم إنهم ـ بشكل ما ـ يستحقون ما سيحدث لهم .. »

عدت أكرر سؤالى الأخير :

ـ « لماذا أنا بالذات ؟ »

ـ « ومن قال لك إنه أنت بالذات ؟ »

ثم أطلق المزيد من الدخان وقال بصوت أجش :

ـ « هل تعرف (محمود زاهر) ؟ »

هنا فهمت .. هذا هو التفسير الثانى بعد استبعاد تسرب أسئلة الامتحان ..

ـ « أنت أعطيته أسئلة الامتحانات كلها ؟ »

ـ « كلها .. وقبل أن يخط أستاذ أى مادة حرفًا من أسئلتها .. وقد قضى الفتى ساعات طويلة يتدرب على

الإجابة عشر مرات ، وبحث عن الإجابات المثلى فى أكثر من مكتبة .. »

ثم قال فى سخرية :

ـ « طبعًا لن تستطيع أن تدينه أو تثبت شيئًا .. أتمنى أن أرى وجهك وأنت تطالب بمجلس تأديب لطالب عرف أسئلة الامتحان مستعينًا بعراف ! »

ـ « هذا يقودنا لسؤال آخر .. لماذا هذا الفتى المحظوظ دون سواه ؟ وكيف تعرفك ؟ »

ـ « أنت تسأل أسئلة كثيرة .. »

وطوح ببقايا لفافة التبغ من فوق المنحدر ، وأردف :

ـ لن تحصل على إجابات واضحة .. فلا تضيع وقتك .. أنت تذكر نصيحة (محمود زاهر) لك بأن تأخذ الحذر مساء يوم ١٧ يونيو .. الجمعة .. هذه نصيحة مخلصة صادقة وأنا مصدرها .. لقد أرغمت الفتى على أن ينذرك .. والحقيقة أننى أرثى لك ..

إن ما أنذرك منه لهو أسوأ نبوءة رأيتها فى حياتى ، وقد أصابنى هلع حقيقى حين رأيتها .. وما كان بوسعى ألا أخبرك بها .. »

برغم أننى لا أصدق حرفًا ، فإن الدم تجمد فى عروقى .. الرجل يتكلم بثقة بالغة إلى حد أن كلامه صار ذا رأس وعنق وذيل .. صار ثلاثى الأبعاد ..

سألته بصوت حاولت أن يكون ثابتًا :

ـ « هل لى أن أعرف ما سيحدث ؟ حريق آخر ؟ نوبة قلبية ؟ »

ـ « إذن لما كنت تجشمت عناء إنذارك .. الحقيقة إن بوسعى أن أنذر وألمح لكنى لا أستطيع أن أعطى تفاصيل .. »

ـ يا سلام ! ولماذا صارحتنى باحتراق الدجاجة ؟ هل أنت مختص بالدجاج فقط ؟ »

ـ « صارحتك بعد احتراقها ! وعلى كل حال لست فى حل من أن أعطيك تفاصيل .. ليس فى أمور مهمة كالموت والحياة .. فقط خذ الحذر .. »

نظرت لساعتى ذات التقويم ، فوجدت أننا فى نهاية شهر مايو .. هناك أكثر قليلاً من أسبوعين قبل أن تقع الواقعة ..

قلت له وأنا أستند إلى باب سيارتى المفتوح :

ـ « حسن .. هل تعرف ما أفكر فيه ؟ »

ـ « طبعًا .. تفكر فى أننى نصاب ! »

ابتسمت وقد تذكرت قصة الرجل ـ أعتقد أنه (أشعب الطفيلى) ـ الذى ادعى النبوءة ، وأعلن للناس أنه قادر على مصارحتهم بما يفكرون فيه .. طلبوا منه أن يخبرهم ، فقال : تفكرون فى أننى كاذب !

أردفت وأنا لا أغالب الابتسام :

ـ « يبدو أنك تعلم الغيب فعلاً ! لكن لعبتك لعبة لاتخيب .. لو حدث شىء يوم السابع عشر من يونيو لكان السبب إنك عبقرى .. إن حياتى خطرة صاخبة ومن العسير ألا يحدث لى شىء .. أما لو لم يحدث شىء فالسبب هو أننى أخذت الحذر .. لو حدث شىء فأنت أنذرت .. ولو لم يحدث شىء فأنا احتطت .. »

قال وهو يدس يديه فى جيبى سرواله :

ـ « ليكن .. كنت أعرف أنك ستقولها .. »

جلست خلف المقود وقلت له فى تهذيب :

ـ « هل أوصلك إلى مكان ما ؟ »

قال بنفس التهذيب :

ـ « لا .. شكرًا .. سيارتى قريبة .. وإلا كيف تحسبنى جئت ؟ »

غريب ! هذا محبط .. كنت أحسب أولئك العرافين البارعين ينتقلون عبر الأزمان والأبعاد .. ولا ينتظرون الحافلات مثلنا ..

وأدرت المحرك وبدأت رحلتى فى الظلام شارد الذهن ..

السابع عشر من يونيو .. ماذا فى السابع عشر من يونيو ؟ هل فى جدول أعمالى شىء ما فى هذا اليوم ؟ ولكن ..

كفى هراء يا (رفعت) أنت تسير فى الطريق إلى أن تصدق هذا المدعى ..

تصدقه مخالفًا كل قناعاتك السابقة .. الدينية والعلمية وحتى المنطقية البسيطة ..

ولكن ....

ما سبب هذا الزحام وهذه الأضواء على جانب الطريق ؟ ضوء أحمر دوار من الطراز الذى يحيل الليل جحيمًا .. (فى لهيب الليل) .. عنوان فيلم أمريكى شهير أتذكره على الفور كلما رأيت مشهدًا كهذا .

ثمة سيارة إسعاف لا تكف عن الولولة .. وسيارة أخرى مقلوبة ويبدو لى أن هناك عددًا لا بأس به من الضحايا .. و ....

لا .. لن أتوقف لأعرف ما إذا كان أربعة قد ماتوا والخامس سيقضى حياته على مقعد متحرك ..

لو توقفت لكان معنى هذا أنى أصدق ..

وأنا لا أريد أن أصدق ..

رباه .. أنا لا أريد أن أصدق ..

* * *

٦ ـ محمد مرزوق ..

جالسًا فى ذلك المقهى الذى اعتدت أن أرتاده فى الآونة الأخيرة ، كان صديقى (محمد مرزوق) المحامى ـ كما يحب أن يطلق على نفسه ـ جالسًا يدخن النرجيلة ويثرثر ..

كان رجلاً فى الخمسين من عمره لم يتزوج بعد مثلى ، لم أكن أعتبره صديقًا .. أنتم تعرفون أننى كثير المعارف قليل الأصدقاء ، لكنه كان مصرًا على أنه صديق وصديق عزيز .. حتى إننى بدأت أقتنع بهذا الذى يقول ..

كان من الطراز الذى يحلق شاربه من أعلى ، تاركًا خطًا أسود رفيعًا فوق الشفة العليا يعتقد هو أنه يكسبه جمال منظر لاشك فيه .. وأنا أعرف هؤلاء الذين يحلقون شواربهم من أعلى .. إنهم يسلكون ذات الأفكار ويقولون ذات الكلام ..

والحقيقة أنه كان كثير الكلام بحيث إننى أشك إن كان يعرف اسمى أو عملى .. فهو لا يسمح لى بأن أفتح فمى لأقول شيئاً واحداً ، وآراؤه فى الحياة جاهزة فى كل ثانية بلا أدنى ترتيب مسبق .. كما أن صوته العالى هو دعوة لكل إنسان كى يشارك فى الحديث معنا .. الحقيقة هى أن (محمد مرزوق) رجل سعيد .. لقد حلّ كل ألغاز الكون ومشاكله ببساطة وهو جالس فى المقهى يدخن .. ولا توجد لديه ألغاز ميتافيزيقية أو مشاكل أو دواع للاكتئاب ..

وكنت أتحمله لأننى أحب هذا المقهى .. ثم إننى بين نارين : نار الوحدة ونار ثرثرته .. أحياناً أفضل إحدى النارين على الأخرى ..

فى هذا اليوم كان صوت مذياع المقهى عالياً كصراخ الشيطان فى الجحيم ، وكان صديقى هذا يتبارى معه فى الصوت العالى ، حتى إننى شعرت بأننى سأفقد الوعى أو أن رأسى سينفجر حالاً ليغرق الموائد حولنا بشظايا العظام وفتات المخ ..

ـ « ولكن دعنى أؤكد لك يا دكتور أن هذا الجيل الجديد قليل الأدب .. جيل الشباب قليل الأدب يفتقر إلى المثل الأعلى .. نعم .. هذا جيل قليل الأدب ، وأعتقد أن بعض الصفعات يمكن أن تصلح الأمور .. فى طفولتنا كنا على خلق وكنا نحترم الكبير .. وكنا متفوقين فى الدراسة ومطيعين فى البيت .. نعم .. كنا مطيعين فى البيت .. لكن هذا الجيل الذى يطيل شعره كالفتيات .. ثم خذ عندك هذا الرقيع (توم جونز) .. إنهم .. »

كنت أوافقه وأنا لا أعى إلا عشر ما يقول .. وعيناى تجولان فى المقهى ..

ثم تصلبتا ..

هناك جوار صاحب المقهى الجالس يدخن النرجيلة ويعد الفيشات ، وجدت ذلك الرجل .. ذات الرجل .. ملامحه الآن واضحة جلية وأعرف بالتأكيد أنه هو ..

رآنى فرفع يده ملوحاً بحركة أنيقة دون أن يتخلى عن مبسم النرجيلة فى فمه .. طبعاً هذا مقهى ، لهذا تجد كل الجالسين تحولوا إلى مصاصات دخان حية ..

رفعت يدى بحركة عصبية محييًا ، ثم تقلصت معدتى ..

أكره هذا الشعور بالمراقبة . أكره الوجوه التى تقابلها فى كل مكان ..

وكان (محمد مرزوق) المحامى ما زال يتكلم عن قلة أدب الشباب ووقاحتهم ..

بعد دقائق نظر إلى ساعته وأعلن أنه تأخر ، وأنه سينام مبكرًا لأن عنده جلسة صباح غد .. وكانت هذه أجمل لحظة فى لقائنا لأنه يتركنى وحيدًا ، بعدها أشرب قدحًا أخيرًا من القهوة وأعود لدارى .. بشكل ما أعتبر هذه (قهوة الصباح) لأن منتصف الليل هو بداية يومى ..

خلا المقعد لدقائق .. وكنت أعرف ما سيحدث ..

هذه المرة نهض الأخ (فوزى شفيق) الذى صار فى موضع بارز من عالمى فى الفترة الأخيرة .. نهض واتجه إلى المقعد الخالى وجلس عليه ..

لم تكن ملامحه غريبة أو توحى بشىء ما .. كان من طراز الأشخاص الذين يصعب تذكر وجوههم لأنه ما من علامة مميزة هناك .. لاشارب ، لانظارة .. الأنف ليس ضخمًا .. العينان بلا لون خاص ..

قلت له دون مقدمات :

ـ « لا أراك حريصًا هذه المرة على الظهور فى الظلام .. »

ابتسم وقال :

ـ « أعتقد أن عليك أن تعرفنى أكثر .. »

ثم أضاف بلهجة ذات معنى :

ـ « هل هو صديق عزيز ؟ »

فهمت أنه يتكلم عن (محمد مرزوق)، فقلت بلامبالاة :

ـ « زميل .. »

ابتسم من جديد وبلهجة ذات معنى قال :

ـ « أرجو أن تكون ودعته جيدًا ! »

* * *

سقط محتوى القدح على سروالى ، وبصعوبة تمالكت نفسى .. صحت فى غضب :

ـ « تبًا ! ألن تكف عن هذا الهراء ؟ لا أعرف مخبولاً إلا وشفى أو مات .. وأنت مازلت مصرًا .. »

قال فى شىء من دهشة كأنه أهين :

ـ « حقًا لا أفهم سبب كل هـذه الفظاظة .. لم أقل شيئًا إلا أن هذا الرجل سيموت .. »

ـ « لم تضف جديدًا .. كلنا جثث تمشى على قدمين .. هل قرأت المحاكمة لـ (كافكا) ؟ »

قال فى ضيق :

ـ « أنت تعرف أننـى أتحدث على المدى القريب لا البعيد .. بالتحديد هذا الرجل سيموت بعد ثلاث ساعات .. »

ـ « أنت عبقرى .. وكيف سيموت ؟ »

ـ « لا أستطيع البوح بالتفاصيل .. »

ـ « ربما كنت على حق لو أنك تزمع قتله .. »

ـ « أنت حر .. لقـد أخبرتك بما أعرفه وانتهى الأمر .. »

ونهض فى كبرياء عائدًا إلى موقعه السابق وعاد يمتص الدخان من مبسم النرجيلة دون أن ينظر لى ..

من الواضح طبعًا أن مزاجى قد تعكر تمامًا بحيث صار من العسير أن أكمل قهوتى ، دعك من أن أكثرها انسكب على السروال بالفعل .. لهذا نهضت وغادرت المكان ..

الليل الرطب المنعش حولى والظلام أمامى .. ومن ورائى صوت الضحكات والبصقات وقرع فيشات الطاولة .. أبتعد عن دائرة الصوت والضوء لأدخل دائرة الصمت والظلام ..

ماذا أفعل ؟

من الواضح أن علـى ـ لو كنت أحترم نفسى ـ أن أذهب لبيتى وأنام قرير العين ..

لكن من الواضح أننى لن أفعل .. لايعنى هذا أننى لا أحترم نفسى ، لكنى موسوس بشكل لايمكن وصفه .. حقًا إن للخزعبلات هيبة برغم كل شىء .. ذات مرة كنت فى غرفة ومعى صندوق فيه رأس (ميدوسا) .. وكنت أعرف أنه لا يوجد شىء اسمه (ميدوسا) لكنى لم أجسر على أن أنظر داخل الصندوق ..

هكذا رحت أجوب الطرقات أتأمل المحلات المضاءة ، عاجزًا عن اتخاذ القرار الصائب ..

وفى النهاية حدث ما لابد أن يحدث ..

* * *

بعينين آذاهما النور ، فتح الباب وتأملنى غير مصدق :

- « غريب هذا .. خير ؟ »

كان (محمد مرزوق) يرتدى - كما توقعت - منامة مخططة بخطوط خضراء طولية ، وعلى رأسه قلنسوة صوفية برغم أننا فى الصيف تقريبًا . وكان يمضغ شيئًا ما ..

قلت له فى حرج :

- « لا شىء .. كنت قلقًا .. شعرت بأنك مريض حين كنا فى المقهى .. »

أشار لى كى أدخل .. كانت الصالة مضاءة تتوسطها مائدة عليها رغيف خبز وطبق فول تم انتهاكه وبعض البصل .. وقال وهو يكور لقمة أخرى ليلقيها فى فمه :

- « هل تتناول العشاء معى ؟ لا ؟ لكن .. من قال إننى مريض ؟ لم أشعر قط بأننى أفضل حالاً .. »

طبعًا لم يكن لدى أى مبرر لبقاء أكثر .. هو قال إنه مشغول غدًا ، والكلام عن نبوءة ليس من الأمور التى يستيقظ لها الناس ليلاً ..

فى اللحظة التالية وجدت زجاجة (أسترا) الساخنة فى يدى .. كان هذا من المشروبات الغازية المحببة

وقتها ، ولسبب ما لم يكن يقدم إلا ساخناً .. جرعتها وأنا واقف أحاول أن أتملص .. ثم تجشأت وحييته وأعلنت أننى راحل .. لم يبد على استعداد لأية درجة من النفاق ..

قلت له وأنا أقف على أعلى الدرج :

- « على الأقل لا تنس واجب الحذر .. أنت تعرف رقم هاتفى .. لو شعرت ببدايات النوبة القلبية أو سكرة الموت ، فلا تتردد فى أن تطلبنى .. »

- « فأل الله ولا فألك .. »

لا أدرى ما الذى ضايقه فى كلامى برغم أنه ملفوف بالرقة والاهتمام ..

* * *

- « ثلاث ساعات .. ثلاث ساعات .. »

هو قال ثلاث ساعات ..

كنت جالساً فى فراشى أقرأ بعض الأوراق الطبية ..

جوارى جهاز التسجيل الجديد الذى ابتعته والذى ينبعث منه صوت (عبد الوهاب) .. وعلى الكومود قدح من القهوة لتساعدنى على النوم .. والقلم فى يدى ، وعشرات الخواطر السوداء هناك ..

الثانية بعد منتصف الليل .. هذا يعنى أن أمامى نصف الساعة .. أو أمام صاحبى بعبارة أدق ..

ماذا دهانى ؟ أبعد كل هذا العمر والخبرات أصدق حرفاً من هذا الهراء ؟ لقد صدقت الكثير من قبل ، لكنى ظللت متصلباً أمام أمور لا يقبلها الدين أو المنطق أو العلم .. لا تحدثنى من فضلك عن آلهة وتنينين ولا عن مغناطيس يجذب النحاس ، ولا عن رجل يتنبأ ..

لا أدرى كيف نمت .. كيف انزلقت قدماى لاشعورياً إلى ذلك العالم الغامض ..

فقط كنت هناك ، وكانت هناك آلاف الأصوات تقول لى : فات الأوان .. فات الأوان !

ومن مكان ما رأيت رجلاً يبدو كأنه من بلاط

(لويس الرابع عشر) إن لم يكن هو (لويس الرابع عشر) شخصيًا ، وقد ابتسم وقال لى : كان يجب أن تصدق ..

ثم شعرت بأن الأرض تميد تحت قدمى ، وانزلقت إلى ما لا نهاية .. حلم السقوط .. أقدم الأحلام البشرية وأشهرها .. وكنت أعرف طبعًا أننى ـ كالعادة ـ سأصحو فى الفراش مذعورًا قبل أن ألمس قاع الحفرة .. حتى فى الكوابيس أظل ملاحظًا جيدًا ..

بالفعل صحوت ونظرت إلى الساعة .. الثانية والنصف ..

لا أدرى .. لكن كل شىء فى كيانى يقول لى إنه يجب أن أتأكد ..

ماذا سيقول لو سمع صوتى أعيد الاطمئنان فى الثانية والنصف صباحًا ؟ ليكن .. سيقول إننى مجنون وإن الوحدة دمرت جهازى العصبى .. وماذا فى ذلك ؟ كم من سباب تلقيت وأنا أقود سيارتى ، فهل غير هذا شيئًا أو أنقص من قدرى ؟

الهاتف الحكومى الأسود البارد .. أدير القرص .. كريك .. كروووووووو .. كريك .. كروووووووو .. كريك .. كرووووووو ..

ـ « آلو .. من ؟ »

بصوت ناعس ثقيل منزعج ..

ـ « هل أنت بخير ؟ »

هذه المرة بلغ غضبه حدودًا غير قابلة للنشر .. لا تنس أن هؤلاء الذين يحلقون شواربهم من أعلى يغضبون أسرع من سواهم ..

ـ أنت مجنون بالتأكيد .. قلت لك إن لدى قضية قـ .. ضـ .. يـ .. ة ! »

وخطر لى ـ باسمًا ـ أننى ربما ساعدت فى تحقيق النبوءة لو أنه أصيب بنوبة قلبية الآن ..

ـ « تجدنى قلقًا .. هل أنت متأكد من أن .... »

ـ « لم يحدث (زفت) .. والآن هلا حاولت أن تنام قليلاً ؟ إننى .... »

هنا سمعت دقات الجرس ..

عنده لا عندى طبعًا ..

قال فى ضيق :

ـ « وما هذا أيضًا ؟ انتظر .. »

صحت مذعورًا بأعلى صوتى :

ـ « لا تفتح الباب .. تأكد أولاً من .... »

لا جدوى .. لقد ترك السماعة .. ثم سمعت صوته قادمًا من بعيد .. يتساءل فى زمجرة :

ـ « من ؟ »

طبعًا لم أسمع صوت الطرف الآخر ، لكنى سمعت المزلاج يتحرك مع جملة من أصوات المفاتيح التى تدور فى الأقفال .. ثم :

ـ « لماذا جئت فى هذه الساعة بالذات ؟ »

ثم :

ـ « آى ى ى ى ى ى !! »

صوت معركة .. صوت ارتطام ....

صوت خطوات تجول فى الصالة .. ثم لا شىء ..

لقد عادت السماعة إلى موضعها السابق ....

* * *

صوت معركة .. صوت ارتطام .... صوت خطوات تجول في الصالة .. ثم لا شيء !!..

٧ـ هدى شوقي ..

الغرفة مفعمة بدخان التبغ الذي تجمد في الهواء تمامًا ، وراح ينذر بهطول الأمطار .. فقط كانت الدوامات تتحرك كلما تنقل أحدهم في الغرفة من مكان لآخر .. عندها يمكنك أن تدرس الحركة الدوامية بدقة بالغة ..

كانوا جميعًا يلبسون القمصان مشمرة الكمين وربطات العنق ، وقد تدلت لفافات التبغ من فم كل واحد كأنها جزء من تشريح الفم ذاته ..

وكان كبيرهم الذي يدنو من الخمسين ـ على قدر تصوري ـ يصغي لي في اهتمام وهو يعبث بقداحة في يده .. يشعلها ويطفئها بلا انقطاع ..

من جديد عاد يسألني :

ـ « أنت إذن مصر على أنك سمعت القاتل وهو

يقرع جرس الفقيد فى الثانية والنصف صباحًا . لكنه لم يلفظ اسمه .. »

ـ « بالتأكيد يا سيدى .. »

ـ « هم م م م م ! »

سألنى أحد الشباب المتحمسين العصبيين قليلاً :

ـ « وهذا يرجح أن الفقيد كان يعرف القاتل .. »

قال أكبرهم بلهجة المعلم :

ـ « ليس هذا ضروريًا يا (علاء) .. ربما كانت لدى القاتل حجة قوية ترغم صاحب الدار على فتح الباب .. وهو لايعرفه .. لاحظ أن الفقيد محام وربما أخبره القاتل أنه جاء ليبلغه شيئًا بصدد قضية مهمة .. »

قلت لهم فى إصرار ما قلته عشر مرات :

ـ « القاتل يدعى (فوزى شفيق) .. ولا أحد سواه .. »

ـ « تقول إنه أخبرك بموعد الوفاة قبل أن تحدث .. »

ـ « نعم يا سيدى .. وهذا يعنى أنه هو القاتل أو من أرسل القاتل .. »

فكر كبيرهم كثيرًا وراح يفتح القداحة ويغلقها مرارًا .. ثم فك ربطة عنقه أكثر وقال :

ـ « وأنت لا تعرف عنوانه .. ولا من هو .. »

ـ « لا يا سيدى .. لكنه ـ كما قلت ـ يتصل بى بانتظام .. وإننى لأطلب ..... »

ـ « نعم .. نعم .. مراقبة هاتفك .. لقد طلبنا إذن النيابة .. »

عدت أقول وأنا أجاهد للبحث عن أكسجين وسط كل هذا الدخان :

ـ « ثمة نقطة مهمة أخرى .. القاتل ترك بصماته على الهاتف .. أنا متأكد من هذا وإلا كيف عادت السماعة إلى مكانها ؟ »

ـ « أخذنا البصمات من كل شىء .. لكن هذه الأمور تستغرق وقتًا .. »

فرغت من قهوتى فوضعتها فى الطبق ، ونظرت لهم متسائلاً ..

قال العميد (سليمان) وهو يصافحنى بيد قوية ، وعينين مرهقتين لكنهما تشعان ذكاءً مخيفًا :

- « يمكنك الانصراف يا دكتور .. وأرجو أن تطمئن .. »

* * *

الآن صارت الأمور واضحة بالنسبة لى ..

كنت أبحث عن عراف عبقرى فإذا أنا أمام قاتل ومجنون حرائق .. هذا هو التفسير الوحيد ولا تفسير سواه .. فى المطعم كان هناك والاحتمال أنه وضع شيئًا هناك ثم انصرف .. شيئًا يشعل النار بعد قليل ..

مقتل صديقى - بل زميلى - المحامى الذى يحلق شاربه من أعلى .. طبعًا أفضل من يخبرك بالموعد الذى سيموت فيه فلان ، وهو قاتل فلان نفسه .. هذا هو التفسير الوحيد ..

الامتحان ؟ لِمَ لا يكون هناك تسرب ؟ هذه الأمور تحدث ..

الدجاجة ؟ لن أتخلى عن قناعاتى وفلسفتى لمجرد أن هناك من أخبرنى أن دجاجتى تحترق .. الآن صار على رجال الشرطة أن يجدوه ، وهذا مرهون بمكالمته التالية لى ، وهى آتية لا محالة لأنه لن يطيق ألا يتكلم ويبدو بمظهر العليم ببواطن الأمور ..

ووقفت فى الشرفة أرمق الشارع الخالى وأقول لزميلى المحامى الذى يحلق شاربه من أعلى :

- « لا تقلق .. لسوف نظفر بقاتلك .. الآن تعرف أننى لم أكن مجنونًا وأنه كان من الغباء أن أتركك عائدًا لدارى .. لربما لو بقيت معك ساعتين أخريين لاستطعنا منع القاتل من التنفيذ .. يجب أن تتعلم أن تثق بالعجوز (رفعت إسماعيل) وأن تصغى له فى المرة القادمة .. »

هل هذا صوت الهاتف ؟

نعم .. هو ..

لم أعتد أن أسر بصوت الهاتف كما سررت اليوم ..

كالملسوع جريت إليه ورفعت السماعة ، وكان صوته الهادئ الواثق :

- « مساءُ الخير .. »

قلت دون أن أرد التحية :

- « أنت قتلته .. »

- « بالطبع لا .. »

ثم أضاف في برود :

- « لا تضع آمالاً عريضة على هذه المكالمة فأنا أتكلم من هاتف عمومي .. »

كيف خمن ؟ لكن .. لا .. هذا مجرد حدس يمكن أن يصل إليه بالاستنتاج المنطقي ..

لم أرد فعاد يقول :

- « الآن وقد تمت المأساة ولم تبذل جهدك لمنعها فاتني .. »

- « لحظة .. من قال إنني لم أبذل جهدي ؟ »

- « لم تبذل وإلا لكنت معه عندما دخل القاتل الشقة وطعنه في عنقه .. أنت جربت إقناعه بنصف قلب .. بنصف عقل .. والسبب هو أنك لم تصدق .. يذكرني هذا بالقس الأمريكي الذي دعا الناس كي يحتشدوا في الكنيسة ليصلوا طلبًا للمطر .. حين جاء المصلون اتهمهم بنقص الإيمان .. السبب هو أن أحدًا منهم لم يحضر معه مظلة وهو قادم للكنيسة .. لو كان مؤمنًا حقًا لاستعد لمواجهة الأمطار الغزيرة في طريق العودة !! »

قلت في غيظ :

- « كف عن خلط الأمثلة والتلاعب بالألفاظ .. أنت لست دينًا كي أؤمن بك .. أنا لم أضيع لحظة واحدة أصارحك فيها بأنك نصاب .. »

ثم أضفت في خبث :

- « لاحظ أن الحادث لم يجد طريقه للصحف بعد ، وبرغم هذا أنت تعرف كل شىء عن الطعنة فى العنق .. »

ضحك كثيرًا جدًا بلا ضحك فى الواقع وقال :

- « طريقة القصص البوليسية السخيفة .. أنا لم أطلق الرصاص على اللورد يا سيدى المفتش .. آه ه ه ه ! كيف عرفت أنه قتل رميًا بالرصاص يا مستر (ويليامز) ؟ معنى هذا أنك القاتل .. »

- « هل تجد طريقة أخرى للتفكير ؟ »

- « وماذا لو كان المستر (ويليامز) قادرًا على التنبؤ ؟ »

ثم أضاف قبل أن أعلق :

- « دعنا الآن نكف عن السخف .. واضح أنك أحمق وأن الخطر قادم نحوك لامحالة .. لهذا سأعطيك فرصة أخرى .. »

وأخذ شهيقًا عميقًا وأضاف :

- « لا تثق بـ (هدى شوقى) .. »

بعد تفكير وجدت أنه على حق .. من ذلك المجنون الذى يثق بـ (هدى شوقى) ؟ خاصة أننى لا أعرف أية واحدة تدعى (هدى شوقى) ..

قلت له فى صبر :

- « لم أسمع عنها قط .. »

- « ستسمع .. ستسمع .. والآن سلام .. »

ثم قبل أن أضع السماعة سمعته يواصل الكلام :

- « كنت تنسينى أهم شىء فى هذه المحادثة المسمومة.. قل لرجال الشرطة أن يبحثوا عن (مصطفى غازى) .. إن أوراقه موجودة فى مكتب صديقك المحامى .. موعدك اقترب جدًا .. أرجو أن تفكر بعناية .. »

- « شكرًا .. »

- « ولا تنس اللبن على الموقد !! »

* * *

قالت (هدى شوقى) وهى ترفع بعض الخصلات عن وجهها :

ـ « أنا (هدى شوقى) .. جارتك فى الشارع .. »

نظرت لها فى غباء ، ولم أشعر بأننى رأيتها من قبل ..

قالت وقد رأت الغباء المجسد على ملامحى :

ـ « أعرف .. أنت منغلق تمامًا ولا تلاحظ أى شىء فى الشارع . لكننى جارتك منذ خمسة أعوام .. أنت د. (رفعت إسماعيل) .. تسكن فى البناية ذات المدخل الرخامى الأسود .. »

كانت المعلومات دقيقة .. وكانت رائعة الجمال إلى حد أننى لم أجرؤ على النظر لها مباشرة .. النظر إلى الشمس اللاهبة أسهل ..

لهذا نظرت فى ضيق إلى موظف البريد الذى راح يختم عشرات المظاريف ، كأننى نصب تذكارى لا أهمية له .. كان الطقس حارًا ومكتب البريد

مكتظًا بالناس وقد بدت عشوائية الزحام تحول الواقفين إلى مجموعة من الدجاج فى (عشة) ضيقة .. حتى توقعت أن يبدأ بعضنا بنقر البعض فى العنق .. أو أن أعتلى المنصة الرخامية لأصيح كالديك ..

كانت تحمل فى يدها عددًا من الجنيهات .. وقد بدت حائرة ..

قلت لها فى ذكاء :

ـ « تريدين تجميدها ؟ »

هزت رأسها فى أناقة :

ـ « أرسل عشرة جنيهات لخالتى فى (البلد) أول كل شهر .. هى لا تقوى على إجراءات الحوالات البريدية »

مددت يدى إلى جيبى أفتش عن ورقة من ذات الجنيهات العشرة .. ها هى ذى واحدة ..

ناولتها إياها وناولتنى الجنيهات .. ورأيتها تخرج

مظروفًا كتب عنوان ما وألصق طابع بريدى عليه فدسّت الورقة فيه ثم ألصقته بلعابها واستعدت لتناوله للموظف .. هنا كنت قد انتهيت من العد مرتين بذلك الشكل المجامل الذى لا يوحى بأننى أعد ..

- « إحم .. هذه ثمانية جنيهات .. »

بدا عليها الذهول وطلبت منى فى إلحاح أن أعاود العد :

- « كيف ؟ أنا متأكدة .. »

- « صبرًا .. واحد .. اثنان .. خمسة .. ثمانية .. الرقم صحيح .. »

أطلقت زفيرًا حارًا من بين شفتيها .. ورفعت عويناتها السوداء لتستقر على مقدمة رأسها ، وقالت فى ضجر :

- « أووووف ! تبًا .. ليس معى المزيد من المال ، وليس معى مظروف أو طابع آخر .. هذا مستفز .. »

قلت فى ملائكية وأنا أوشك على دس الجنيهات فى جيبى :

- « لامشكلة .. تقولين إننا جاران وهذا .. »

- « بل أنا مصرة على التسوية .. »

وبحزم أضافت وهى تأخذ الجنيهات الثمانية من يدى :

- « من فضلك يا دكتور .. أنت لاتمنحنى بقشيشًا .. »

ثم مدت يدها فناولتنى المظروف الذى كان فى يدها :

- « هاك .. سأحضر لك باقى مالك من السيارة بالخارج .. لكن أرجوك أن تحتفظ بهذا المظروف .. فورقة الجنيهات العشرة فيه .. »

وابتسمت فى ثقة وشقت طريقها وسط الزحام ..

هذه أنثى واثقة سريعة البديهة وعلى قدر عال من

الكبرياء .. لو كانت واحدة أخرى لقبلت تطوعى بالتضحية .. لكنها ترفض أن تأخذ شيئًا من دون ثمن ..

طبعًا انتظرت ساعتين بانتظار عودتها دون جدوى ..

طبعًا لم أجسر على فتح المظروف إلا بعد ساعة أخرى ..

وطبعًا لم أجد بداخله إلا ورقة بيضاء ..

وقد قال لى أحد أصدقائى فى الشرطة حين حكيت له هذه القصة :

ـ « هذه الطريقة فى النصب متبعة منذ عام ١٤٥٦م ، وكل طفل فى السابعة يعرفها .. هل كنت تعيش فى كهف طيلة هذه الأعوام ؟ »

ـ « تقريبًا .. »

ـ « إنها استبدلت بالورقة المالية تلك الورقة البيضاء خلسة ، وأنت تبتسم فى بلاهة وأمومة كالموناليزا ..

هكذا سلبتك جنيهاتك العشرة واستردت مالها .. ومن الواضح أنها كانت تعرف شيئًا عنك وعن سكنك .. لابد أنها اختارتك أنت من بين كل عملاء مكتب البريد .. ويبدو أنها كانت على حق .. »

ثم سألنى باسمًا :

ـ « هل ترغب فى أن تكتب محضرًا ؟ »

صحيح أن عشرة جنيهات كانت مبلغًا فادحًا فى ذلك الوقت ، لكنى لم أكن متحمسًا إلى هذا الحد ..

فضلاً عن أننى لا أحب أن أسجل حماقاتى على الورق الرسمى ..

ـ « لا شكرًا .. »

وهنا تذكرت اسمها .. (هدى شوقى) .. لا تثق بـ (هدى شوقى) .. هذا هو الإنذار الذى قدمه لى (فوزى) وبالطبع نسيته تمامًا ونسيت الاسم ، فلم أتذكره إلا الآن ..

لا أريد من هذا كله استخلاص حقيقة أننى أحمق سهل الخداع ، فكل طفل يعرف هذا .. لكنى أردت القول إن ذلك الرجل يعرف حقًا ما يتكلم ..

(فوزى شفيق) يرى الغد حقًا ..

* * *

٨ ـ فوزى شفيق (٣) ..

الغرفة مفعمة بدخان التبغ الذى تجمد فى الهواء تمامًا ، وليست هذه غلطة جعلتنى أكرر ما قلته فى الموقف السابق .. السدة المدخنون يلتفون من حولى .. لكنى هذه المرة لست مركز الاهتمام ..

مركز الاهتمام رجل قصير القامة ، يجلس فى المركز وفى يده لفافة تبغ ترتجف قدمها له أحد الضباط ليهدئ من روعه قليلاً .. عيناه زائغتان ككل القتلة الذين ترى صورهم فى صفحات الحوادث .. والأمر بالنسبة لى لا يحتاج إلى المزيد من التحقيق ..

عاد أكبر الضباط يسأله :

ـ « أنت مصر على أنك لم تر الأستاذ (محمد مرزوق) منذ شهر . أليس كذلك يا (مصطفى) ؟ »

ـ « بلى يا سيدى .. أقسم إننى .. »



فما إن استجاب لرجائك حتى فتح الباب ، وانغرست السكين فى عنقه ..

رفع الضابط يده ليخرسه :

ـ « قبل أن تقسم أيها الزنديق .. دعنا نؤكد لك أنك شوهدت فى الشارع ليلة الجريمة بالضبط .. »

كانت دموعه جاهزة بضغطة زر ، وقد ضغط عليه لتنهمر الدموع مدرارًا :

ـ « وماذا فى ذلك ياسيدى ؟ هذا شارع عومى .. »

ـ « وبصماتك الموجودة فى كل مكان من الشقة ؟ وعلى سماعة الهاتف .. »

لم يجد ما يقول فبادره الضابط الثانى المدعو (علاء) :

ـ « أنت قتلته .. كنت تعرف أنه سيفتح الباب لأن قضيتك مازالت طازجة .. فما إن استجاب لرجائك حتى فتح الباب ، وانغرست السكين فى عنقه .. »

ـ « هذا ظلم ! »

- « كنت متهمًا بالسطو المسلح واستطاع هو تبرئتك لأنه حسب أنك مظلوم .. لم يعرف أنه أطلق سراح الأفعى التى ستعضه .. »

قال الرجل وقد تصاعد أداؤه بأسلوب (كريشندو) المسرحى المعروف :

- « حرام . حرام .. هذا ظلم !! »

- « وكنت تعرف أن الفقيد يعيش وحده ، وأنه سيفتح بابه لك فى أى وقت ، وأنه فى الغالب يحتفظ بمبالغ مالية ضخمة فى بيته .. »

الآن وصل الأداء لدرجة الذروة العبقرية ، فنهض مغطيًا وجهه بيديه :

- « أنا برىء ! برىء ! برىء .. »

وكانت هذه هى اللمسة الاحترافية المطلوبة لأن كل الضباط انفجروا فى التصفيق كأنما يرغبون فى أن يعيد هذا المشهد المحكم ..

لما انتهى التصفيق قال (مصطفى غازى) المتهم الوحيد فى الجريمة ، وهو يقاوم رغبة عارمة فى الانحناء للتحية :

- « كان الشيطان أقوى منى .. لقد .. لقد جعلنى أقتل الصديق الوحيد الذى وثق بى ودافع عنى بحماسة .. وكل هذا .. كل هذا ولم أجد فى شقته إلا عشرين جنيهًا .. »

- « يا للخسارة ! عنقك مقابل عشرين جنيهًا .. »

ثم قال كبير الضباط بلهجة مسرحية مناسبة للموقف :

- « خذوه .. »

وهكذا اقتادوا المجرم إلى مصيره الغامض كما فى مسرحيات (سوفوكليس) ، على حين ظللت أنا ثابتًا أرقب هذا كله .. وقلت ملاحظة خطرت لى :

- « لماذا لم يرتد القفازات قبل أن يفتش البيت ؟ »

أشعل كبير الضباط قداحته وأطفأها وقال :

ـ « لأنه ليس فى إحدى روايات (أجاثا كريستى) حيث المجرمون العباقرة .. هذا مجرد حيوان يتصرف بالغريزة .. ذئب مسعور يمزق من أمامه دون حذر أو تأنيب ضمير .. وهو لايؤمن بالبصمات وهذا الكلام الفارغ .. على كل حال ما كنا لنفكر فيه إلا بمعجزة ، لولا أنك نبهتنا إلى اسمه .. وهذا يعنى أن البصمات لم تكن لتفيدنا كثيرًا إلا بعدما وضعنا فى ذهننا شخصًا بعينه .. »

قلت فى تواضع :

ـ « سيدى .. أنا لم أنبهكم لاسمه .. أنتم سجلتم المكالمة كاملة مع المدعو (فوزى شفيق) .. »

ـ « لكنك أخبرتنا بأمر (فوزى شفيق) هذا .. والحقيقة أننا نحب أن نستدعيه لنسأله بعض الأسئلة .. لكننا لم نستطع تتبع المكالمة ، كما أن رجالنا لم يعثروا بعد على مكانه .. »

ثم نظر لى مبتسمًا منهكًا ففهمت على الفور ، ونهضت مستأذنًا ..

بالنسبة لى هذه القضية أهم شىء فى حياتى ، لكنها بالنسبة لهم مجرد جزء من أجزاء عملهم المعقدة المتشابكة ..

* * *

مر أسبوع دون أن يتصل بى (فوزى شفيق) ..

كنت فى هذه الفترة ألعب دور الفتاة التى تضايقها مكالمات محب لاتعبأ به على الإطلاق .. فلما انقطعت مكالماته بدأت تتوتر وتقلق .. لماذا لايتصل ؟ لكنها ـ برغم هذا ـ لا تعترف لنفسها بأنها قلقة أو تلاحظ ..

كنت أتساءل عن سبب انقطاع مكالماته .. ثم أقول لنفسى : ماذا تريد من هذا النصاب ؟ كل ما قال يمكن تفسيره منطقيًا .. من أدراك أنه ليس المدبر لهذا كله ، وأن (هدى) و(غازى) كانا يعملان معه ؟

ثم أقول لنفسى : وما الفائدة من هذا المجهود المضنى ؟ هل لمجرد أن يثير انبهارى ؟ لست الإسكندر الأكبر على كل حال .. هذا الفتى يخفى سرًا مخيفًا رهيبًا .. ولكن ما هو ؟

كلا .. لن أنتظر مكالمات (فوزى شفيق) لأننى أظن به الظنون ..

لكنى ـ كذلك ـ أنتظرها لأنى أظن به الظنون !

وحين دق جرس الهاتف للمرة الثانية فى عشرة أيام شعرت بضيق لأن هذا البيت تحـول إلـى سنترال عومى .. ثم تذكرت أن المتكلم قد يكون هو بالذات .. هرعت فى لهفة إليه ورفعت السماعة ..

ـ « آلو .. »

قال فى استمتاع :

ـ « أرى أن الحـذر لايمنـع القـدر .. لقد خدعتك (هدى شوقى) .. »

ـ «دعك من هذه القصة .. إنها مجرد كلام فارغ .. »

ـ « أنا كذلك أرى هذا .. لكنى لا أترك فرصة لجعلك تعرف ما أعرفه إلا واغتنمتها .. والآن هل صدقتنى؟ »

قلت فى ضيق :

ـ « صدقت أنك لغز .. لكنى لم أصدق بعد أنك تعرف ما سيحدث .. »

فى نفاد صبر غمغم :

ـ « ليكن . يا للملل ! أنت حالة غير قابلة للعلاج .. ولكنى مازلت أوصيك بأن تطيعنى .. »

ثم أردف :

ـ « بعد دقيقة سيدق جرس الباب ، ولسوف تكتشف أن فاتورة الكهرباء مرعبة .. حاول ألا تلفظ أنفاسك الأخيرة .. »

قلت فى برود :

ـ « اطمئن .. هذا لن يقتلنى .. »

ـ « أعرف أنك لن تموت لسبب كهذا .. لاتنس أننى أعرف ظروف وفاتك جيداً ، لكن ربما خذلتنى علمى .. »

وضعت سماعة الهاتف وأنا أشعر بشىء من التجديف فى هذا الذى يقوله .. إن هذا الوغد يزعم أنـه أوتـى القـدرة على معرفة أين ومتى أموت ، وهو ما يتجاوز دائرة الغرور إلى دائرة التجديف الصريح ..

لكن ما تفسير هذا ؟

ترررررررن !

جرس الباب ..

طبعًا هذه فاتورة الكهرباء .. وهى مرعبة .. لقد حاولت ألا ألفظ أنفاسى الأخيرة ، وكان هذا صعبًا .. الحقيقة أن مصلحة الكهرباء تفترض أن هناك دار سينما أو مصنع طائرات فى شقتى .. لكن لا يهم .. المهم هنا هو أن (فوزى شفيق) دقيق كالعادة .. وأنا عاجز عن إيجاد تفسير ..

طبعًا لا أستطيع الزعم بأنه اتفق مع المحصل أو قام بتزوير فاتورة لى ..

(فوزى شفيق) يعرف الكثير عما سيحدث لى فيما بعد ، وقد بدأت أتوتر ..

* * *

فى الصباح نظرت إلى التقويم .. ثلاثة أيام تفصلنى عن ١٧ يونيو .. الجمعة ..

لا أرى أننى أتجاوز حدودى لو قلت إننى خائف .. لو قلت إننى قلق .. ثمة شىء ما يعرفه هذا الرجل ، وحتى اللحظة لم يثبت لى أنه مخطئ ..

رفعت سماعة الهاتف وطلبت شركة الطيران .. بضعة أيام فى (رومانيا) مع (جوستاف) قد تنسينى هذه الأمور .. إن مصاصى الدماء يناسبون صحتى أكثر من أى شىء آخر ..

ثم تذكرت .. من قال إنه لا خطر هنالك فى رومانيا ؟ إن الموت موجود هناك كأى مكان آخر .. ربما أكثر ..

وضعت السماعة ورحت أفكر .. الإسكندرية الجميلة ؟ لِمَ لا ؟ ولكن من أدرانى أن .....؟

الحقيقة أننى أكرر سيناريو قصة (موعد فى سمارة) الشهيرة لـ (سومرست موم) .. التاجر فى بغداد يرى الموت ينظر له مندهشًا .. يصاب التاجر بهلع ويجمع كل أشيائه ويعلن لرفاقه أن الموت نظر إليه ، وأنه يعرف أن نهايته دانية لهذا سيفر إلى بلدة (سمارة) التى يصلها الليلة ..

يفر التاجر وبعد قليل يقابل صديقه الموت يمشى فى الأسواق .. يقترب منه ويسأله : لماذا نظرت إلى صديقى وأفزعته ؟

يقول الموت : كنت مندهشًا لأننى قابلته فى بغداد بينما المفترض أن ألقاه هذا المساء فى (سمارة) !!

هل أنا أكرر هذه القصة ؟ أتجه بالضبط إلى حيث يراد لى أن أكون ؟

ومن قال إن كلمات هذا الفتى تحمل قوة الأقدار ونفاذها ؟ إن موتى سيكون فى ساعة محددة ووسيلة محددة لا يعلمهما إلا الله ، ولن تتغيرا مهما قال كل عرافى العالم ..

لكننى برغم كل شىء أشعر بالحصار .. أشعر بأن ظهرى للحائط .. وهو ضعف بشرى طبيعى يتحدى المنطق ..

ربما أستطيع أن أحسن الفرص لو تركت دارى .. لو انتقلت إلى (سمار) ... إلى قريتى .. هناك وسط أهلى

وعلمى الحميم أكون فى أمان نسبى .. إن فرص الأخطار التى تحيط بكهل وحيد فى شقته هى أكثر مما يتهدده وسط قرية مزدحمة يعانى أهلها مرض المودة الزائدة ..

وهكذا فعلت كل ما اعتدت أن أفعله عندما أغادر بيتى لفترة طويلة .. صملم الغاز .. النوافذ .. مذكرة لـ (عزت) .. مصيدة الفئران من أجل ذلك الفأر المزعج .. الحقيبة ..

ثم .. إلى (كفر بدر) ..

* * *

٩ ـ عبد الواحد مهدى ..

طبعًا لم يعد للبيت ذات المذاق القديم بعد رحيل أمى، وبالمثل صارت زياراتى للقرية أقل ..

إن هؤلاء المسنين الأعزاء ـ الآباء والأمهات ـ يلعبون دور القبضة التى تعتصر حفنة من الرمال .. وهم يضغطون بقوة لكن ما إن يجىء القضاء وتتخلى قبضتهم عن الرمال، حتى تتبعثر حبيبات الرمل فتجد صعوبة فى جمعه .. لهذا يظل الأب هو الأب مهما تدهور ومهما وهنت قواه .. والمثل الشعبى يقول: «أبويا أبويا ولو عضم فى قفة» .. هو الشىء الوحيد الذى يعطى البيت معنى (بيت)، وهو القادر الوحيد على جمع أسرته فى مكان واحد ..

كانت (رئيفة) العزيزة تنتظرنى ومعها زوجها (طلعت) والأبناء الذين كبروا حتى لم أعد أعرفهم بسهولة ..

قالت لى وهى تعانقنى:

ـ «حمدًا لله على السلامة يا أخى .. أرجو أن تكون زيارتك فى الخير ..»

فهى تعرف أننى فى الفترة الأخيرة لا آتى إلا هربًا من خطر ..

(سمارة) .. ظلت الكلمة تتردد فى ذهنى وأنا أفتح حقيبة السيارة لأوزع ما أحضرت للأطفال معى .. لو كنت قد هربت إلى (سمارة) فأنا أحمق؟

لكن كيف لى أن أعرف؟

تناولت معهم طعام الغداء، وثرثرنا كثيرًا طبعًا .. لقد كف الناس والحمد لله عن سؤالى عن موعد زواجى .. صاروا يسألون عن صحتى فى حذر .. لا أكثر ولا أقل .. لكن (رئيفة) وزوجها لم ينسيا أن يسألا عن (ماجى) تلك الخواجاية الحسناء التى أمضت معها وقتًا لابأس به .. وكانت هاربة أيضًا ..

بعد الغداء أعلنت (رئيفة) أن بوسعى أن أصعد إلى غرفتى لأنال قسطًا من الراحة .. جلبابى على الفراش ولو أردت شيئًا يكفى أن أطلب ..

شكرتهما بشدة ، واتجهت لأصعد الدرجات الطينية الرطبة الزلقة قليلاً التى تقود إلى حجرتى القديمة .. طبعًا لابد أن أحترس كى لا أسقط ، وكى لا أدوس البط الذى يتواثب على درجات السلم قادمًا من السطح ..

فراشى القديم العزيز .. والوسادة والسقف المدعم بألواح الخشب .. ياله من زمن سحيق !

نزعت ثيابى وارتديت الجلباب ـ على سبيل استعادة الجذور ـ وتأملت نفسى فى المرآة المشروخة المعلقة فى ركن الغرفة .. فزاعة (خيال مقاتة) ترتدى جلبابًا أبيض وتبتسم ..

ثلاثة أيام .. يجب ان تمر ..

بعدها سأعرف أننى أحمق أؤمن بالخرافات ..

أنا واثق من هذا ..

أما لو مت فمن العسير أن تلعب المصادفة دورها بحيث أموت يوم الجمعة مساءً .. ربما قبل ذلك بقليل أو بعد ذلك بقليل .. عندها سأعرف أن (فوزى) نصاب فعلاً وأننى أحمق !

* * *

قطرة من قطرات الندى قبل شروق الشمس ..

لحنًا سمعناه لثوان هنالك من الدغل ..

ثم هززنا الرءوس ، وقلنا إننا توهمناه ..

وداعًا أيها الغريب ..

لكن كل شىء ينتهى ..

* * *

اليوم هو ١٤ يونيو ..

يوم حار رهيب يناسب فعلاً أن يكون أخطر أيام حياتى ..

صحوت قبل صلاة الجمعة بنصف ساعة ، وكنت غارقًا فى العرق ، والبعوض لم يترك موضعًا سالمًا من جسدى .. لو رأيتنى الآن لحسبت أننى كنت ألعب الملاكمة مع (كلاى) شخصيًا ..

توضأت واتجهت إلى مسجد القرية الذى لم يتغير عبر السنين .. ومازالت تلك النخلة تميل على جداره دون أن تسقط أو ينهار الجدار ..

طبعًا لابد من الجلباب حتى لا أبدو مبتذلاً بالنسبة للناس هنا ..

جلست وسمعت الخطبة ثم أديت الصلاة ، وبعدها وقفت وسط عدد من الأهالى أجد صعوبة فى تذكر أسمائهم .. لكنهم دائمًا هناك ..

كثير من الأسئلة عن الإسهال والديدان والأعصاب والسكر وارتفاع ضغط الدم .. وكثير من السلامات والدعوات كى (أتفضل) ..

الحقيقة أننى عانيت كثيرًا فى الأيام السابقة .. تصور وطواطًا بشريًا يرغمونه على ممارسة حياة صاخبة ..

فى كل ليلة هناك من يزور أو يزار و(رضا) أخى يهمس فى أذنى :

- « ألن تزور (عبد الواحد مهدى) ؟ »

فأقول له : إننى لا أشعر بأدنى رغبة فى زيارة من لا أعرفه أصلاً ..

يقول فى توحش وهو يضغط على كلماته :

- « كبيرة ! كبيرة ! تريد أن تبقى فى البلدة ثلاثة أيام دون أن تزور (عبد الواحد) ؟ أنت صرت ابن المدينة ولاتفهم مايفهمه الفلاحون .. هذه أمور بديهية .. لاتنس أنه كان العمدة يومًا .. »

وهكذا أذهب معه بأسلوب (جعلوه فتجعل) الشهير ..

هناك يكون (عبد الواحد) جالسًا فى الدوار يشرب الشاى الأسود ويثرثر مع رجال آخرين .. وأدخل لتتصاعد التحيات وتخرج السجائر من علبها .. ويبدأ الكلام عن المرحوم أبى وعن (أبو زينة) .. (أبو زينة) الذى سيدفع الثمن غاليًا .. من هو

(أبو زينة) ؟ طبعًا لا أعرف ولا أجرؤ أن أسألهم كى لايجنوا .. من المفترض أنه شخص شديد الأهمية ليسيطر على ثلاث ساعات من الحوار ..

وبعد أربعة أكواب من الشاى الأسود وعشرين لدغة بعوض ، أشكرهم وأنهض مع أخى عائدين .. هنا يعتصر (رضا) ذراعى ليقول ناصحًا :

- « الآن نزور (عبد البارى) .. »

- « (عبد البارى) ؟ »

- « نعم .. (عبد البارى خضر) .. »

- « وهل لابد من أن ؟ »

هنا يحمر وجه (رضا) وتتسع عيناه ويسيل لعابه من فرط الغيظ :

- « هل تريد أن تزور (عبد الواحد) ولاتزور (عبد البارى خضر) ؟ لو عرف (مسعد) بهذا لجن جنونه .. ماذا تقول الناس عنا ؟ لا .. كبيرة ..

كبيرة .. إن المجاملة مهمة فى الريف يا (رفعت) يا أخى .. أحيانًا أحسبك .. »

- « نعم .. نعم .. ابن المدينة الرقيع الذى لايفهم قواعد المجاملات الرجولية .. لكن صدقنى إن لعبة التوازنات هذه موجودة فى كل مكان .. »

- « إذن نزور (عبد البارى خضر) .. لاتسأله عن (صفوان) أبدًا .. أنا أعرف أن لسانك زلق .. »

هكذا لايعود بوسعى أن أسأل من هو (صفوان) هذا ..

وثلاث ساعات عند (عبد البارى خضر) لانسأل فيها عن (صفوان) ، وكوبان من الشاى الأسود ، ثم أعود للدار لأفرغ معدتى التى التهبت من حمض التانيك ..

هذا يلخص لك كيف مرت بى ثلاثة أيام كاملة هنا . ولو كان (فوزى) هذا نصابًا فإننى قد دفعت ثمنًا فادحًا لحماقتى ..

تناولت الغداء الدسم ثم صعدت إلى حجرتى لأنام قليلاً ..

عندما أصحو سيكون الليل قد جاء وأعـرف .. أعرف ..

لكن الألم بدأ يتزايد فى صدرى ، تلك الكماشة التى تطبق أكثر فأكثر من دقيقـة لأخرى .. أكثر فـأكثر .. أكثر فأكثر ..

نهضت إلى حقيبتى فأخذت قرصًا من النتروجلسرين - رفيق كفاحى - ودسسته تحت لسانى وانتظرت حتى يزول الألم ويبدأ الصداع كالعادة ..

لقد اعتدت الذبحة الصدرية منذ سنوات حتى صارت (أسلوب حياة) ، بل إننى لم أعد أفهم كيف يعيش إنسان دون أن يشعر بآلام خلف عظمـة القص وفى الكتف اليسرى ..

لكن الألم لم يزل .. إنه يتزايد ..

نظرت لوجهى فى المرآة وابتسمت فى خبث ..

غالبًا هذه نوبة قلبية شديدة ..

أولاً : ليست هذه تلك الكارثة البشعة التى وصفهـا لى (فوزى شفيق) .. ما الجديد فى هذا ؟

ثانيًا : واضح أن الليل لم يأت بعد .. هذا يثبت لـك أن كلام الرجل خطأ .. حتى لو مت الآن فقد انتصرت عليه ..

تبًا .. الألم يتزايد ..

هل أخبر الآخرين ؟ لا .. من الواضح أننى أحب أن أحل مشـاكلى بنفسى حتى لو كانت مشكلة بسيطة كالاحتضار .. ثم إننى الطبيب الوحيد هنا والمفترض أن أعرف ما ينبغى عمله ..

هنا سمعت (رئيفة) تنادينى من الخارج :

- « (رفعت) .. »

قلت ضاغطًا على أسنانى :

- « مممممممم ! »

واتجهت إلى الباب ففتحته ..

نظرت فى رعـب إلى وجهى الشـاحب - بلاشك - والعرق الذى نما على جبينى وتساءلت فى رعب :

ـ « هل أنت بخير ؟ »

ـ « مممممممم ! »

ـ « لاتبدو كذلك .. »

ـ «بل أنا بخير وإن لم أبد كذلك .. ماذا تـ ... تريدين ؟ »

قالت وهى لاترفع عينيها عن جبهتى الملوثة بالعرق :

ـ « هناك من جاء من عند (عبد الواحد) .. يقول إن هناك مكالمة لك من مصر .. »

ومصر عند المصريين هى القاهرة طبعًا ، لأن قريتى ليست فى ألاسكا .. أما (عبد الواحد) فأنت تعرف أنه من علية القوم ، وطبعًا يملك جهاز هاتف .. من يدرى ؟ ربما هو والعمدة فقط يملكان واحدًا ..

قالت (رئيفة) :

ـ « سيعيد الاتصال بك بعد عشر دقائق .. »

وتراجعت للوراء دون أن تحول عينيها عنى وبدت متشككة .. لهذا تحاملت على نفسى ، ولما كنت أرتدى الجلباب ، فقد دسست قدمى فى خفين ومشيت وأنا أوشك

على فقدان الوعى .. أهبط الدرجات الطينية المخيفة .. أمشى كالمخدر فى شمس العصر الحارقة وبعض الفلاحين ينظرون لى فى دهشة .. لم أبد لهم على ما يرام على الاطلاق .. كنت أقول لهم فى سرى : لاتندهشوا يا سادة .. أنا رجل ميت يمشى .. كما يقول الأمريكيون عن المحكوم عليهم بالإعدام ..

ـ « تفضل يا دكتور .. »

قالها (عبد الواحد) فى ترحاب وهو جالس فى (المضيفة) مع خمسة رجال ..

ـ « هل أنت بخير ؟ »

قالها أحد الرجال وهو ينظر لما عرفت الآن أنه وجهى المريض الشاحب .. فرددت :

ـ « (شوية كده) .. الحمد لله على كل حال »

ـ « و(شوية كده) .. تشخيص لامعنى له لكنه مقبول لدى الغالبية من غير المتخصصين .. أنت لن تقابل (ابن النفيس) فى كل قرية على كل حال ..



فقد دسست قدمي في خفين ومشيت وأنا أوشك على فقدان الوعي .. أهبط الدرجات الطينية المخيفة ..

وقبل أن أفهم ما يحدث وجدت كوب الشاى الأسود فى يدى مع من يحلف علىّ بالطلاق أن أشرب .. ثم دوى رنين الهاتف الطويل المزعج قادمًا عبر القرى والنجوع ..

ـ « هذه المكالمة لك .. »

وجاء من يضع جهاز الهاتف الموضوع فى سلة متآكلة من القش على حجرى ، فوضعت السماعة على أذنى لأسمع الصوت وقد تداخلت معه آلاف الأصوات عبر القطر :

ـ « أنت أحمق يا دكتور .. »

قلت بصوت مبحوح :

ـ « هـذا ليس جديدًا .. ولكن لمـاذا لا تستعمل لفظة (ألو) كبداية يا أخـى ؟ وكيـف عرفـت هـذا الرقـم ؟ »

جاء صوت (فوزى) يقول بثبات لكن بحزم :

ـ « أنا أعرف كل شىء عنك .. ظننت هذا مفهومًا .. لكنى عانيت أى معاناة للاتصال بقريتك هذه .. كـان من الأسهل أن آتى لأقول ما أريد .. »

ـ « وماذا .. ماذا تريد قوله ؟ »

ـ « لا أستطيع التصريح .. لكن دعنى أقل لك إنك فى خطر داهم هنا ، يجب أن ترحل فورًا وقبل الليل وهو قد صار دانيًا جدًا .. »

قلت فى وهن :

ـ « لو كنت حقًا تهتم بأمرى لأرحتنى من كل علامات الاستفهام هذه .. لماذا لاتقول ماتعرفه وينتهى الأمر ؟ »

ـ « لاأستطيع .. لكن بوسعى فقط أن ألمح .. لاتبق فى القرية ثانية واحدة .. »

تحسست صدرى الذى مزقه الألم وقلت :

ـ « وددت لو كان باستطاعتى أن ...... »

قال فى استهتار :

ـ « هذا الذى تشعر به ليس سوى عسر هضم مع

أعراض قرحة معدية .. أنت بالغت فى الأكل والدسم والتوابل على الغداء ، ولو كنت مكانك لأفرغت معدتى الآن .. »

غريب هذا ! لايوجد مخلوق يعرف أنى أعانى من آلام صدر .. والغريب أنه عرف سببها أيضًا ..

عدت أقول بلهجة أكثر وهنًا :

ـ « حسن .. وأين أذهب إذن ؟ »

ـ « لاأستطيع أن أخبرك .. كل مابوسعى هو أن أقول لك أين لاينبغى أن تكون .. وأنت لاينبغى أن تكون فى القرية .. خطر! »

ثم وضع السماعة وتركنى أرمق جهاز الهاتف بعينين زائغتين ..

ـ « خير يا دكتور ؟ »

سألنى (عبد الواحد) وهو يمد لى يده الغليظة بكوب الشاى كى أفرغ منه ..

قلت وأنا أجرع أون جرعة من المشروب المميت :

- « خير إن شاء الله .. »

وفى اللحظة التاليـة لـم تعد معدتـى تتحمـل أكثر ، وأفرغت كل شىء .. كل شىء ..

* * *

١٠ - رفعت إسماعيل ..

بعد أعـوام قـرأت قصـة ممتعـة مـن مختـارات (هتشكوك) اسمها (الهرب من يوم الخميس) ..

بطل القصة مهندس تنبأ لـه عراف بأنـه سيموت يوم الخميس السادس عشر من مـارس .. ولمـا كـان الرجل - لأسباب طويلة - يوقن بصحة النبـوءة . فقد قـرر أن يلجـأ إلى طريقـة مبتـكرة .. قـرر أن يركب طائرة أسرع من الصوت تعبر بـه خطوط الطول .. وبحسابات معقدة (مذكورة فى القصة بدقة) استطاع أن يفر من مناطق اليوم فيها هو الأربعاء إلى مناطق اليوم فيها هو الجمعة .. أى أن يوم الخميس بالنسبة لـه لـن يزيد على نصـف ساعة يقضيها علـى متـن الطائرة ..

لكن الرياح لاتأتى بمـا تشتهى السفن ، وسرعـان

ما اضطرت الطائرة للهبوط لمدة نصف ساعة فى جزيرة بالمحيط الهادى .. ويتضح أن هذه الجزيرة ما زالت (تعاتى) يوم الخميس .. طبعًا جن صاحبنا وطار عقله شعاعًا ، وراح يذرع ممرات المطار متوترًا بانتظار الإقلاع ثانية .. فقط ليحترق بعد دقائق على الممر بسبب خزان وقود طائرة محلقة اضطرت للتخلص منه .

كنت فى تلك الساعات بحاجة إلى وصفة سحرية تخلصنى من الساعات الباقية من يوم الجمعة ١٧ يونيو .. لكننى لم أكن بهذه الثقافة الجغرافية الواسعة ، وحتى من يملكونها يهلكون كما تقول تلك القصة الرهيبة ..

* * *

لم أكن أتصور أن القىء سيطهرنى من الداخل إلى هذا الحد ..

كأننى غسلت من مرضى ومن همومى ، الآن فهمت لماذا كان بعض الشباب الوجودى يخرجون إلى

الخلاء ليقيئوا على سبيل الاشمئزاز الفلسفى .. الغريب أن هذا الـ (فوزى) طبيب بارع حقًا .. حتى أنا لم أعتقد لحظة أن هذه آلام قرحة .. لكن كما تعرفون .. آلام القلب لدى الشباب هى سوء هضم غالبًا وآلام الهضم عند الكهول هى نوبة قلبية غالبًا ، وأنتم تعرفون أننى لم أعد شابًا .. كيف كان لى أن أعرف أنه ما زال لدى بعض الشباب فى مكان ما ؟

ولكن لا وقت لهذا الهراء .. ما إن فرغت من الاعتذار لضيفى الذى أصابه الذهول مع قدر لا بأس به من الاشمئزاز : حتى راح يردد فى غيظ مكبوت :

ـ « خذ راحتك .. ليس على المريض حرج .. فليشفك الله .. »

ما إن فرغت من هذا حتى عدت للدار .. غسلت وجهى من كل هذه الفوضى ، وبدأت إعداد حقيبتى ، ثم توجهت إلى (رئيفة) وزوجها وقلت لهما : إن هناك أشياء عاجلة طفت على السطح فى القاهرة ..

هناك فى القاهرة أشياء كثيرة من هذا الطراز الذى يطفو .. طبعًا لم يفهما شيئًا لكنهما أبديا الأسف لأننى راحل بهذه السرعة .

ولم تستغرق إجراءات الوداع أكثر من ربع ساعة ..

حقًا لن أمل أبدًا هواية أن أجعل الناس يشعرون بأننى مجنون .. جئت القرية بلاسبب مفهوم ثم تقيأت ورحلت دون سبب مفهوم ..

وبعد دقائق كنت أنظر إلى اليمين واليسار قبل أن أعبر الطريق الرئيسى الخارج من قريتى ..

* * *

كانت الأسئلة تزدحم فى ذهنى ..

لو كان (فوزى شفيق) يعرف ماسيحدث ـ وحتى هذه اللحظة برهن على هذا بنجاح ـ فلماذا لايفصح عن التفاصيل ؟ لماذا يكتفى بالتلميح ؟ كان بوسعه أن يخبرنى بكيفية مقتل المحامى ، وكيف ستخدعنى

الفتاة فى مكتب البريد ، وكان بوسعه أن يخبرنى أن الدجاجة ستحترق ..

وكان يستطيع إخبارى بالخطر الذى يتهددنى ..

ثمة قواعد غامضة وضعها لنفسه ولاأعرف سببها ..

لماذا يختار بعض (المحظوظين) ليبلغهم بتلميحاته هذه ؟ أنا لم أستفد الكثير منه إلا القلق الدائم ، لكن طالبًا متوسط المستوى مثل (محمود زاهر) أفاد منه حقًا ..

من هو (فوزى شفيق) ؟ من أين جاء ؟ إلى أين هو ذاهب ؟

تلك أشياء لن أعرفها فى الوقت الحالى ..

الطريق يمتد أمامى ، وتلك الإضاءة الرديئة المميزة لدخول المساء .. لم يحل الظلام فتحتاج إلى الكشافات (ولن يكون لها دور على كل حال) ، ولم تعد الشمس هناك حتى تصير الرؤية واضحة .. كل شىء أزرق

باهت شاحب مختلط .. لابأس .. سأتحمل دقائق أخرى حتى يسود الظلام فعلاً ، ويمكننى عندئذ أن ألعب بقواعده ..

أنا بحاجة إلى سماع أم (كلثوم) من المذياع .. هذا وقتها .. مددت يدى أداعب أزرار الجهاز وعينى على الطريق .. ولكن .. ثمة شىء مكسور .. هذا الزر ليس فى .....

نظرت إلى المذياع لأرى موضع الخلل ، ثم رفعت عينى لأرى الهول قادمًا ..

كانت شاحنة عملاقة تندفع فى الاتجاه المعاكس ، وعلى نفس الخط الذى أمشى عليه .. كيف ؟ هل جن سائقها ؟ هل ...... ؟

حاولت أن أتحاشاه فلم أفلح ..

وفى أجزاء الثانية التى تفصلنى عن التصادم ضغطت على الفرملة بحركة متشنجة .. و .....

* * *

وداعًا أيها الغريب ..

كانت إقامتك قصيرة ، لكنها كانت رائعة ..

عسى أن تجد جنتك التى فتشت عنها كثيرًا ..

* * *

الظلام .. الظلام ..

مقيد .. مكبل ..

ماذا حدث لى وأين أنا ؟ ولماذا تؤلمنى كل عظمة من جسدى بهذا الشكل ؟

تلك الرائحة ...

لكننى حى .. أعرف هذا وأدركه .. لكن رأسى ثقيل ولا أستطيع بلوغ استنتاجات ما .. إن ذهنى كالضباب .. كالدخان الذى كان الضباط ينفثونه فى تلك الغرفة المغلقة .. الحريق فى المطعم .. (هدى) تعطينى جنيهاتها .. (عبد الواحد) يدعونى إلى الدخول .. دخول بطنه الكبير .. (ماجى) فى قصر أبيها تطالع

قصصًا مخيفة ، و(هويدا) تصفع طفلها ، و(عزت) ينحت تماثيل لامعنى لها ..

ولكن .. ماذا ؟

* * *

حين أفقت ثانية أدركت أن على وجهى شيئًا ما ..

أستطيع تحرير وجهى بشىء من الجهد .. إن يدى تتحرر .. ماكل هذه الأربطة ؟

تلك الرائحة ...

هذا الظلام الدامس .. لكن ضوءًا غامضًا مكتومًا يتسرب من مكان ما ..

الآن أدرك أننى فى قبو مظلم ..

إننى أرقد على الأرض فوق رمال .. ثمة أشياء من حولى تتشح بالظلام لكن الضوء يرسم حدودها الخارجية وهى حدود لاتريح النظر ..

أخيرًا أتحرر ..

أزحف على ركبتى على الرمل ..

تلك الرائحة ..

يخيل إلى أن الضوء يأتى من شىء يشبه الكوة .. أدنو منها .. أتحسسها .. أدرك أنها أقرب إلى باب من معدن موصد من الخارج بعناية ، ويبدو أن وراءه ترابًا .. يبدو أننى تحت مستوى الأرض ، لكن هناك ثغرة ما ، وهذه الثغرة تسمح بدخول شعاع ضوء لايزيد سمكه على رأس دبوس .. هذا الشعاع - مع كل هذا الظلام - يلعب دور مصباح لابأس به .. على الأقل أعرف إلى حد ما أين أنا ..

عدت أنظر من حولى ..

تلك الرائحة .. التى هى مزيج من العطن ورائحة عضوية غامضة وعطر .. أين شممتها من قبل ؟

صحت بصوت عال :

- « يا هوووه !! »

لكن الصدى جعل الصوت مرعبًا حتى إننى قررت الصمت قليلاً ..

أنا جائع وأشعر بظمأ مروع .. كم لبثت هنا ؟

وعدت أنظر حولى .. هذه الأشياء الملقاة ما هى ؟

لماذا تلتف بهذه الأقمشة الرثة ؟

لماذا ألتف أنا نفسى بهذا الثوب الغريب ؟

هنا بدأت أفهم ..

* * *

هبطت الحقيقة علىّ ببطء شديد .. ثم بدأت تتشكل وتتخذ جسدًا ماديًا حقيقيًا .. وشعرت بكل بصيلات شعرى تتصلب ..

أنا ميت !

لا .. بل اعتبرت ميتًا .. وتم دفنى هنا !

هذا واضح ولا يحتاج إلى ذكاء كثير ..

لماذا طارد هذا الرعب (إدجار آلان بو) وكتب عنه قصصًا كثيرة ؟ كان يخشى أن يصاب بتيبس العضلات ويحمل إلى القبر وهو حى .. كانت هذه أسوأ كوابيسه ومعه حق ..

حادث السيارة أدى إلى انقلابها ، وطرت أنا فاقد الرشد ليجدونى على الأرض .. ولابد أننى كنت لا أتنفس وكان قلبى ساكنًا كما سمعوه .. فحص سريع وتحقيقات سريعة ، ثم حمل جسدى إلى القرية والبدء فى إجراءات الدفن سريعًا من أجل تكريمى ..

بينما أنا حى !

وليتنى لم أكن ..

لا أصدق هذا لكنه حقيقى ..

قال (فوزى شفيق) إن ما سيحدث لى ليلة ١٧ يونيو سيكون شنيعًا .. سيكون شيئًا لا يصدق ..

كان محقًا كالعادة .. لم أتصور قط شيئًا أبشع من هذا .. والكارثة أنه يحدث فعلاً ..

والآن أنا فى مأزق حقيقى ..

لا أحد يعرف الحقيقة إلا (فوزى) وهو كالعادة سلبى صموت يراقب من بعيد ويكتفى بالإنذار والتلميح .. فمتى يتكلم .. وماذا لو لم يتكلم ؟

سأموت من الظمأ ..

سأموت من الجوع ..

سأموت من الرعب ..

لكنه سيكون موتًا بطيئًا أكرهه بشدة ..

والساعة الآن ؟ أعرف فقط أنه النهار وأن شعاع الضوء الخافت لم يكن موجودًا فى المرة السابقة .

معنى هذا أننى (مت) فى المساء وبالتأكيد ثم دفنى عند الظهر أو العصر بعدها صحوت للمرة الأولى ..

الآن أنا هنا منذ نصف يوم ، وبالنسبة للناس أنا ميت منذ يوم ونصف ..

إن ذهنى ما زال متوقدًا وليته لم يكن كذلك ..

تُرى متى أفقد الوعى أو أجن ؟

تُرى متى يأتى الخلاص ؟

* * *

طبعًا يعرف القارئ أننى لم أمت ... وإلا فكيف أحكى لكم كل هذه الذكريات ؟

لكن كيف سأنجو ؟ وأية أهوال سأعيشها قبل أن أنجو ؟

من هو (فوزى شفيق) ومن أين جاء ؟ وماذا يريد ؟

كل هذه الأجوبة سنعرفها - أو نكتشف أننا لن نعرفها أبدًا - فى الجزء الثانى من هذه القصة التى ما زلت أعتقد أنها مسلية برغم كل شىء ..

* * *

وداعًا أيها الغريب ..

كانت زيارتك رقصة من رقصات الظل ..

قطرة من قطرات الندى قبل شروق الشمس ..

لحنًا سمعناه لثوان هنالك من الدغل ..

ثم هززنا الرءوس ، وقلنا : إننا توهمناه ..

وداعًا أيها الغريب ..

نهاية الجزء الأول

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس من فرط الغموض والرعب والإثارة

روايات مصرية للجيب

أسطورة النبوءة

وداعًا أيها الغريب ..

كانت إقامتك قصيرة، لكنها كانت رائعة ..

عسى أن تجد جنتك التي فتشت عنها كثيرًا ..

وداعًا أيها الغريب ..

كانت زيارتك رقصة من رقصات الظل ..

قطرة من قطرات الندى قبل شروق الشمس ..

لحنًا سمعناه لثوان هنالك من دغل ..

ثم هززنا الرءوس، وقلنا إننا توهمناه ..

وداعًا أيها الغريب ..

لكن كل شيء ينتهي ..



د. أحمد خالد توفيق

مطابع العالم العربية

الثمن في مصر ــه
وما يعادله بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم

المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

العدد القادم :
أسطورة العراف